أمير الشرق

"عثمان دقنة"

تأليف

محمد سليمان صالح ضرار

الطبعة الاولى

الدار السودانية للكتب

ص ب ٢٤٧٣ الخرطوم

تليفون : ٨٠٠٣١

أمير الشرق

تأليف

محمد سليمان صالح ضرار

الطبعة الأولى

الاهـــداء

الى روح والدى

مع وفائى واجلالى

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأت اطلاعى على كتاب الأمير عثمان دقنه للاستاذ محمد سليمان صالح ضرار وقد تملكنى شعور بأننى لن أجد فيه شيئا جديدا لكثرة ماقرات عن هذه الشخصية التاريخية الهامة ، بيدأننى وجدت نفسى استرسل فى القراءة وألتهم الصفحات بشغف شديد والمؤلف يهتك بى أستار الماضى ويسبر أغوار الزمن بسرده الفذ وفكره الرصين حتى أتيت على الصفحات كلها فلقد أحاط المؤلف بالموضوع من كل جوانبه واستطاع ان يجمع بين المراجع المكتوبة والمصادر الشعبيه الموجودة متخذا من كل هذا منهجا علميا صحيحا ونظرة قومية صادقة مستنبطة من كفاح بطلنا الخالد الذى ذاد عن تراب الوطن بالدم والعرق وسطر صفحة مشرقة من النضال والصمود ضد المستعمر الذى كان فى أوج مجده وقد دانت له مشارق الارض ومغاربها ولم يتزحزح ايمان اميرنا قيد أنملة حتى وهو فى غياهب السجون بل ظل شامخا أبيا .

لقد استعرض المؤلف كل نشاط الأمير عثمان دقنه السياسى والعسكرى مضيفا الكثير لما هو معروف عن معاركه السياسية والحربية كما أبرز شخصيات هامة لعبت دورا على مسرح التاريخ السودانى فى تلك الفترة كل ذلك بأسلوب فنى جديد وبناء رائع جعلنى اتنقل بين شخصيات الكتاب النابضة بالحياة وبين معاركه العنيفة الملتهبة كأنها تدور أمامى الآن . كذلك استطاع المؤلف أن يفند افتراءات مؤرخى المستعمر الذين حاولوا النيل من أصلة بعد أن فشلوا فى التشكيك فى عقيدته ولقد تبدت أصالة المؤلف فى حسمه للقضايا التاريخية التى كانت مثارا للجدل والنقاش حقبة من الزمن .

ان هذا السفر سـجل حافل بالبطولة والتضحية وهو درس وطنى خصب ، كما أن الصفحات التى كتبها المؤلف سـاعدت فى تصـوير البيئة بوضوح وفى تجسيد الشخصيات بحيوية ولذلك فالكتاب ليس بتاريخ فحسب ولا بدراسة للشخصية فقط ولكنه صورة فيها كل هذه الألوان العلمية مع غيرها من الألوان تسهم مجتمعة فى اثراء الفـكر والتراث الانسانى ولا شك أن القارىء سيجد فى هذا الـكتاب متعة كبيرة .

بروفسير
يوسف فضل
عميد كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم

الفصل الأول

الأرض والنـــاس

يمتد شرق السودان موازيا للبحر الأحمر من بئر شـــلاتين شـــمالا وحتى مصوع جنوبا وتمتد حدوده غربا غرب جبال البحر الأحمر حتى نهر عطبرة وتتميز المنطقة الساحلية بالجفاف وتتخلل أراضيها الخيران التى تصب فى البحر الأحمر ولا يوجـد أى نوع من الزراعـــة على امتداد هذا الساحل القاحل أما جبـــال البحرالأحمر فتتخللها الوديان والخيران حيث يـــكون الطقس وكمية مياه الامطار ملائمين لزراعـــة الذرة والدخن اللذين يعيش عليهما سكان شرق اسودان مع ما يرعون من ما شية اذ أن معظم السكان رعاة بدافع من المناخ شبه الصحراوى وضغط من الأرض الجرداء . ومثل كل ســـكان الجبال فهم يميلون الى العزلة والفردية .

ويطلق على سكان شرق السودان منذ قديم الزمان لفظة البجة ولقد أطلق عليهم هذا اللفظ من جميع الأمم التى عرفتهم .

اختلف المؤرخون فى أصـــل البجة فذكر بعضهم أن البجة حاميون ولكنا نجد أن داؤد روبينى والمسعودى والدكتور جواد على واسترابو ونعوم شقير وجرجى زيدان أجمعوا على أن البجة من أبناء كوش بن كنعان أى من أصل سامى .

عرف الفراعنة البجة منذ أقدم العصور وأطلقوا عليهم لفظة البليميين كما عرفوا فى كتابات الفراعنه (بالبقة) واتصـــل الفـــراعنه مع البجة تجاريا ، كما نشط الفراعنة فى اســـتخراج الذهب من منـــاجم البجة

وسخروا قبائل البجة لهذه الأعمال وكانت العلاقة بين الجانبين متوترة فكلما قويت شوكة البجة ثاروا ضد الفراعنة وأغاروا على مدنهم .

ولقد كان الملك الفرعون (سنفرو) هو أول فرعون يعرفه البجه اذ قام بفتح بلاد البجة وأدانها لحكمه وانه من للطريف حقا أن يكون لهذا الاسم معنا باللغة البجاوية وهو (الأخ الجميل) الذى يطابق المعنى الفرعونى كما أن هنالك كلمات فرعونية آخرى مثل ايلات وقرتيت يتطابق فيهما المعنيان البجاوى والفرعونى . ولقد أرغم سنفرو البجه على دفع الجزية وبعد فترة توقف النشاط الفرعونى فى منطقة البجه ولكن فى عهد المملكة المصريه الوسطى وخاصة فى عهد الأسرة الثانية عشر اشتد النشاط الفرعونى فى المناجم ولقد قام الفراعنة بتسخير البجه لأعمال المناجم .

وعندما احتل الرومان مصر لم يعرفوا البجه على أول عهدهم ، ولكن بعد القرن الأول الميلادى بدأت قبائل البجة تهاجم الحدود الجنوبية لمصر وتنيجة لهذه الهجمات وقع الرومان معاهدة عدم اعتداء مع البجه ولكنها لم تستمر طويلا فنقضها البجه سنة ٢٦١ م واستمرت مناوشات البجه للرومان حتى صدهم القائد الرومانى يوليوس فيرمليانوس وتحالف البجه مع الملكة زنوبيا فى ثورتها ضد الرومان وكان نصيبهم الهزيمة . ولكن هزائم البجه المتكررة من الرومان لم تثمر فى ايقاف هجمات البجة وغزواتهم من مرة لأخرى . فقام الرومان بتوطين أمة النوباتيين بينهم وبين البجه وذلك سنة ٢٩٧ م رامين الى ايقاف هجمات البجه .

وبالرغم من ضغط الأمبراطورية الرومانية ودولة آكسوم على البجه فانهم لم ينهاروا واستطاع البجه استعادة قوتهم سنة ٤٢٩ م وهاجموا

مدينة أسوان وخربوا معابدها . وبحلول القرن الخامس للميلاد أصبح البجه سادة الموقف على أرض النوبة لا ينازعهم فى ذلك منازع وتقلص النفوذ الرومانى الى درجة استطاع معها البجة تأسيس دولة ثانية جنوبى أسوان . ولم يسجل البجة انتصاراتهم كتابة لأنه لم تكن لديهم كتابة خاصة بلغتهم ، لكن استطاع (خاراشين) ملك البجة كتابة وثيقة تاريخية باللغة الفرعونية سجل فيها انتصاراته .

كان آخر عهد البجه بالثورات ضد الرومان هى حملات الملك النوبى (سلكوا) الذى استعمله الرومان اداة لتحطيم البجه ، بالرغم من الهزيمة الساحقة التى ألحقها بالبجة فقد استمرت مناوشاتهم بين الحين الآخر .

وعندما فتح العرب بقيادة عمرو بن العاص مصر استعان الرومان بالنوبة والبجه . وحارب معهم ملك البجة (مسكسوح) بخمسين ألف مقاتل ومئات من الأفيال ولكن استطاع عمرو بن العاص هزيمة الحلفاء وكسر شوكتهم .

شهد شرق السودان قبل الاسلام عدة موجات سامية نزحت اليه من جزيرة العرب وأشهر تلك الموجات هى هجرة قبيلة (بلى) وهم بنو بلى بن عمرو بن الحافى بن قضاعة بن حمير وقبائل (بلى) هم أول من نقل اللغة العربية الى أفريقيا وجاوروا قبائل البجه دون الاختلاط بهم ، فاطلقت البجه كلمة (بلويت) على اللسان الذى تتكلمه (بلى) أى اللغة العربية ، وهى ما لم تكن مفهومة لديهم ولذلك نسبوها لأول من تكلمها فى ديارهم . ولما كان البلو عنصرا ساميا ، فانهم أصبحوا سادة البجه وأطلق البجه لفظ (بلى) على

كل رئيس أو سيد وكانت كلمة (بجه) تعنى العكس وترفع البلو عن مصاهرة البجه . ولـكن بمرور الزمن تزوجوا ببنـــات ملوك البجه وأصبح ابناؤهم يتكلمون لغات امهاتهم أى اللغة البجاوية . واستمر البلو ملوكا على البجه فترة من الزمن وكان يطلق عليهم لفظ الحدارب كذلك . على ان ملكهم زال مع الهجرات العربية التى لحقتهم واندثر البلو كعنصر راق ولم يبق منهم غير افراد قلائل .

شهدت مصر هجرات عربية بعد الفتح العربى من قبائل قحطان ونزار وربيعة وقريش ، ولكن مناخ مصر لم يكن ملائما مع العرب اصحاب الابل والمواشى ، فهاجروا من مصر اما فرارا من الحكام أو طلبا للرزق او بحثا عن المعادن فى جبال البجه .

ومن أهم الأصول العربية التى هاجرت لبلاد البجه .

١ ــ أبناء أبى بكر الصديق .

٢ ــ أبناء الزبير بن العوام من بنى مصعب بن الزبير واستوطنوا الوجه القبلى .

٣ ــ بنو هلال وهم فرع من بنى عامر بن صعصعه .

٤ ــ بنو العباس وهم من أكثر القبائل التى هاجرت الى السودان.

وبمرور الأيام استطاع العنصر العــربى أن يحل محــل كل ممالك البجه الخمسة الموجودة :

١ ــ قبائل البشاريين ويسكنون فى مملكة ناقص .

٢ ــ قبائل الامارار وهم يعيشون فى منطقة مملكة بقلين .

٣ ــ قبائل الهدندوه وينتشرون فى بقاع مملكة بازين .

٤ ــ قبائل بنى عامر وموطنهم على السواحل الجنوبية

٥ ــ قبائل الحلنقة ويقطنون فى كسلا وما حولها .

وأكبر قبائل شرق السودان هى قبيلة الهدندوه . ولقد هاجر جدهم المدعو محمد المبارك من الحجاز الى شرق السودان عن طريق عيذاب حوالى القرن السادس الهجرى باحثا عن ابن عم له يدعى عبد الله بن أحمد ، الذى صاهر البجه فى منطقة أركويت وتزوج محمد المبارك بابنه ابن عمه عبد الله ورزق ولدا اسمته البجة (باركوين) ومعناها (الذى لايهاب) وانحدر من باركوين سبعة أولاد وهم :

١ ــ قرهب أبو هدل .

٢ ــ كلاى أبو هميس .

٣ ــ نايتيب أبو بهريت .

٤ ــ با شوك أبو هاكول .

٥ ــ شبودين أبو جميل .

٦ ــ حملاب أبو قايد .

٧ ــ ويل حماد أبو سمار .

ولقد قيل فى كلمة هدندوه ثلاث روايات أولاها انهــا انحــدرت من (هدل دوه) ومعناها أولاد الرجل الأسود والرواية الثانية أنها مشتقة من (هداب دوه) ومعناها ابناء الأسد أما الرواية الأخيرة وهى الأرجح فهى مشتقة من (هدادوه) ومعناها ابناء الزعيم .

وينقسم الهدندوه الى قبائل منها القرعيب وهم ينتسبون الى رجل جعلى حضر اليهم من الزيداب وتزوج بمطلقة حامد الشرعى ورزق بولد وبنت منها وسمى بقرعيب لأن له أناء خاصــا من القــرع لا يستعمل

سواه وهم ينتمون من جهة الأم لها كول بن باشك .

أما قبيلة الويل علياب فهي تنتمي الى محمود أبو بعريت المشهور بنأيتيب وقبيلة القايداب تنتمي الى حاملاب أبو قايد ، وشبودين أبو جميل هو جد الجميلاب أما قبيلة الشرعاب فجدها جعلي يقال له حامد بن محمد ، أما قبيلة البشارياب وهم أخوال الأمير عثمان دقنه فقد تفرعت من ذرية بشار بن حامد .

وقبيلة البنى عامر تتكون من مجموعة من القبائل انحدرت من عامر بن على شاع الدين من بلاد الجعليين وتزوج بابنة ملك البجه وأطلقوا عليه (على ثابت) ومن ثم أطلق على نسله بني عامر النابتاب . أما قبيلة الأمارأر والتى يعنى اسمها بالبجاوى (أبناء عمار) فهى قبيلة كبيرة تسكن بين الهدندوه والبشاريين وهى مكونة من عائلتين كبيرتين ، هما أبناء عمار وأبناء عثمان بن عجيب العبدلابى ، فالأولى هى أبناء الأبن والثانية أبناء البنت ولقد اندمجوا فى أخوالهم حتى صار يطلق عليهم اسم واحد هو الامارار وعمار هذا هو ابن محمد بن كاهل من ذرية وراق بن مصعب بن الزبير بن العوام .

وقبيلة (الحلانقة) من أصل عربى وينتسبون الى قبيلة هوزان ونزحوا لهذا الاقليم أيام ولاية الحجاج بن يوسف وتوغلوا فى بلاد الحبشة طلبا للرزق وكانوا يركبون الخيل ويحملون السياط وسماهم الأحباش (حلانقة) ومعناها باللغة الحبشية « السوط » وهم الذين شقوا مجرى نهر القاش .

الملهيتكناب من قبائل البجه التى تنحدرمن أصل عربى اذ أن جدهم هو محمد بن أبى بكر الصديق . واستوطنوا فى بلاد التاكا فى خور (ملهيت) واشتهروا بالدراسة والصلاح وكان لهم مسجد كبير فى جهة (تندلاى) بالقاش وبقى الملهيتكتاب الموجودون فى كسلا

تحت نظارة الهدندوه أما قبائل العجيلاب وهم فرع من الملهيتكتاب فيقطنون بمنطقة عقيتاى جنوب طوكر ويرجع الفضل لهم فى نشر الاسلام على ساحل البحر الأحمر الغربى أما قبيلة الارتيقة والتى يعنى اسمها بالبجاوى (ناظر) ولقد استعمل هذا الاصطلاح عندهم بدلا من كلمة ناظر فهى من القبائل العربية التى هاجرت من حضرموت حوالى سنة ٨٨٢ م الى مدينة سواكن واستقروا بها أمراء الى أن صدر فرمان تركى بتوليتها للدقناب ويقال انهم ينتمون الى أحمد بن العلوية ومحمد ابنى باصفار .

وقبيلة الحباب والذين يطلق عليهم الأصحاب فهم لفيف من أعراب اليمن والتيجرى تراسهم عائلة من نسل العباس بن عتبة بن عمرو بن هشام وكانت تستمد سلطاتها من ملوك الحبشة وكانوا بارتريا حتى عام ١٨٩٨ م اذ حصل خلاف فى بيت رئاستهم فانشق منهم جزء صغير دخل الأراضى السودانية .

الرشايدة هم آخر القبائل العربية التى هاجرت للسودان من الجزيرة العربية حوالى سنة ١٨٥٦ م نزل بعضهم بميناء محمد قول والبعض الآخر بميناء أم بارك واجتمع شملهم فى (قرورة) واقاموا زمنا بأراضى الحباب حتى انتقلوا الى أماكنهم الحالية ومنهم قبائل البرسا والبراطيح والزنيمات .

والبجاوى فى مظهره صغير المبنى متوسط القامة خفيف الحركة سريعها يقفز الى أعلى فى خفة الطير والى الأمام فى سرعة الفهد ووجهه نحيل بيضاوى ، وفكه غير عريض ولكنه ينزل فى زاوية حادة الى الذقن فتصبح كانها زاوية المثلث اما انفه فحسن الاستقامة جميل التكوين ويبدو مثالا حسنا للانف القوقازى وبشرة البجاوى بنية تشوبها حمرة وشعره ناعم تغلب عليه الأمواج .

ومن أهم مدن هذا الاقليم مدينة سواكن التى تقع على الساحل الغربى للبحر الاحمر الى الجنوب من بورتسودان وهى من اقدم

المدن السودانية ويرجع تاريخها فى بعض الروايات الى عصر سيدنا سليمان بن داوود أى للقرن العاشر قبل الميلاد .

ولقد قيل ان اسمها اشتق من لفظ سواجن اذ ان سيدنا سليمان اتخذها سجنا للجن كما قيل ان ملك الفرس خسروا ارسل فى طلب جوارى من الحبشة ومرت سفن الجوارى بسواكن وقضت فيها ليلة ، ولما وصلت الجوارى لفارس تبين انهن حوامل وعند السؤال عن الفاعل قيل له (سواه جن) أى فعله الجن اذ قيل ان سواكن كان يسكنها الجن كما قيل أن لفظه سواكن معناها باللغة الهندية المدينة البيضاء .

وسواكن عبارة عن جزيرة دائرية الشكل يربطها بالساحل جسر بناه ممتاز باشا .

ولقد عاصرت سواكن الفراعنة والبطالسة والرومان والاسلام فى مصر وكان لها اتصال بكل هذه الدول وهى ميناء تجارى سابقا ، تأتيها البضائع من الهند وبلاد الشرق الأقصى الاخرى وعن طريقها كانت تخرج الحاصلات وكل صادرات السودان الى الحجاز والهند وأوربا ومصر واستمرت هكذا حتى فتحها سليم الفاتح بين عامى ١٥١٢ ــ ١٥٢٠ ومن ذلك الوقت أصبحت تابعة للاتراك حتى تنازلوا عنها لمحمد على باشا . وعندما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ انشاوا قنصلية انجليزية فى سواكن وأمرت الحكومة أحد مهندسيها وهو الملازم أول غردون (الجنرال فيما بعد) ان يبنى سورا حول المدينة خوفا عليها من هجوم مفاجىء من القبائل التى حولها وتم بناء ذلك

السور الذى يحيط بالقيف ويبدأ من مخازن المهمات (النزل) شمالا وينتهى عند السجن جنوبا ، ومن ساحل البحر الشمالى الى الساحل الجنوبى وبنيت حوله من الداخل الثكنات الحربية والقشلاقات فصارت المدينة أمنع من عقاب الجو وارتفاع السور نحو أربعة امتار تقريبا وسمكه نحو ثلاثة أمتار تقريبا وفيما بعد أى سنة ١٨٨٦ فتحت فى هذا السور خمس بوابات لمراقبة الداخلين والخارجين ووضعت قوات عسكرية لحماية تلك البوابات .

والبوابات هى البوابة الشمالية بوابة الانصارى بوابة كتشنر والبوابة الثالثة بوابة (اندارا) أو بوابة الأمير « محمود بك ارتيقه » والرابعة بوابة المحلج وتوجد على بعد ميلين فأكثر ثمان قلاع مشحونة بالرجال والعتاد وكذلك الثكنات مضافا اليها ثلاثة وابورات حربية راسية بالميناء تضىء البادية بكشافاتها ليلا وفى فترة الثورة المهدية كان يعيش فى سواكن خليط من الاجانب من الاتراك والمصريين والهنود والأرمن والاغريق كذلك كان يعيش فى سواكن عدد من قبائل البجه من الهدندوه والامارار والارتيقة والاشراف والبنى عامر والبشاريين وكان الدقناب من أهم القبائل التى تسكن سواكن انذاك .

وكانت سواكن عندما قامت الثورة المهدية عاصمة للسودان الشرقى وكانت مقر (المحافظة) وعليها حماية المدن الاخرى ، وكانت على اتصال دائم بالقاهرة تأتيها الامدادات والجيوش عن طريق البحر الاحمر ومهما طال حصارها فانه لا يمكن أن ينضب معين مواردها لأنها كانت تستمد كل مواردها من مصر والهندوغيرهما عن طريق البحر .

ولقد تعاقب على سواكن فى فترة الثورة المهدية عدد من الحكام العسكريين وغير العسكريين وكان أقوى هؤلاء توفيق بك الذى دافع

طويلا عن سنكات ثم خرج قاصدا سواكن بمن معه من الجند . واللورد كتشنر الذى جاء الى سواكن برتبة الملازم أول .

تليها مدينة كسلا الواقعة جنوب سواكن وتبعد عنها اكثر من ٣٠٠ ميل وهى قريبة من حدود ارتريا يحيط بها من الشرق تلال أهمهـــا جبل كسلا المشهور وفيها حاميات من الحكومة وهى مقر الطـــائفة الختمية . وتقع مدينة طوكر جنوب ســـواكن على مسافة ٤٠ ميلا. وتحيط بها اراضى زراعية خصبة يرويها خور بركة بمياهه التى تأتى من مرتفعات ارتريا القريبة من السودان وهى أكبر مصدر للحبوب والمواد التموينية والمنطقة بين طوكر وسواكن منطقة كثيرة الأشجار وأكثر هذه الأشجار اشجار الأراك مما تأكل الأبل . ويقع شمالها ميناء ترنكتات وغرب سواكن تقع مدينـــة سنكات على مسافة ٤٠ ميلا وتحيط بهـــا التلال من كل الجهات وتقع قـــرية أركويت على بعد ٢٠ ميلا تقريبـــا شرق سنكات وهى مرتفعة ارتفـــاعا كثيرا بالنســـبة للمناطق حولهـــا وطقسها معتدل طوال ايام السنة يميل الى البرودة فى الشتاء .

الفصل الثاني

(أصـــله ونشأته)

هوعثمان بن ابى بكربن محمد بن على ولقد حضرجده عبد الله الملقب بالتركى لبياض لونه من الاسكندرية الى سواكن بتجارة عظيمة سنة ٩٥٢ هـ واستوطن سواكن واثبت نســـبة لدى الشـــيخ عبد العليم العباسى (قاضى سواكن) وتزوج بابنته رقيه عبد العليم ومات عنهـا حاملا ســـنة ٩٥٧ هـ وولدت بعد وفاته ولدا ذكرا سمى باسم أبيــه عبد الله المذكور وهو الذى تتصل به نسبة قبيلة الدقناب نبدأها من الشـــيخ على بك دقنــه رئيس بندر مدينة سواكن فى عهـــد الدولة العثمانية الى أن توفى فى عهد الدولة المصرية سنة ١٢٨٢هـ وذلك بموجب (فرمان منشـــور) عال بمشيخة ذلك البنـــدر من الـــدولة العثمانية من لدن سلطانها فى ذلك الوقت السلطان عبد المجيـــد خانا برئاسته على سواكن والشـــيخ على دقنـــه هـــذا هو ابن عم الأمير عثمان دقنـــه فان أبويهما اخوان شقيقان فالشيخ على دقنـــه هـــو ابن الفقيه العالم العـــلامة محمد بن على دقنـــه والأمير عثمان هو ابن أبى بكر دقنه بن على دقنه وعلى دقنه هذا هو ابن محمـــددقنه بن احمـــد ابن محمد بن احمد بن محمد بن رجب بن محمد خليل بن عبـــدالله الملقب بالتركى الســـابق ابن الفضـــل ابن الحسن بن ابراهيم بن سعيدين الفضل بن الخليفة المستعين بالله بن الفضل العباس بن أمير المؤمنين المعتز بالله أبى بكر المؤمنين المستكفى بالله ابن الربيع سليمان ابن أمير المؤمنين الحاكم بامرالله ابى العباس أحمد بن ألامير أبى بكر بن على الحسن القبى بن أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله بى منصور

الفضل بن امير المؤمنين المقتدى بالله أبى القاسم عبد الله بن المرحـوم الذخيره للدين ولى عهد المسلمين محمد بن الامام القـائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن آمير المؤمنين القـادر بالله أبى العبـاس احمد ابن أمير المؤمنين بن الفضـل جعفـر المقتـدر بالله بن أمير المؤمنين المعتضد بالله ابن العباس بن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسـلمين بن أمير المؤمنين جعفر المتوكل بن أمير المؤمنين أبى اسـحاق المعتصم بن أمير المؤمنين هارون الرشـيد بن أمير المؤمنين محمد المهدى بن أمير المؤمنين عبد الله بن جعفر المنصـور بن محمد الكامل بن على السجاد وهو الذى سماه الامام على رضى الله عنـه حين ولد أبا الخلفاء بن ترجمان القرآن وحبر الأمه عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب .

ولد الآمير عثمان دقنه بمدينة سواكن حوالى سـنة ١٨٤٣ ولقـد تزوج والده ابو بـكر دقنه نفيسة والدة الامير عثمـان التى سـميت بعد فتحهـا لخلوة تعليم القـرآن (بست البنـات) وهى من عائلة (قلهايدو) من قبيلة البشارياب احدى فروع الهـدندوه ولقـد سمع أبو بكر دقنه قراءتها للقران بينما كان يسير لصـلاة الجمعة بالمسجد الشافعى بسواكن فطلب من أهلها أن يزوجوها له فقبلوا وتم عقد القران فانجبت الأمير عثمان دقنه وشقيقه عمر وهاجرت من سواكن مع ابنها الأمير عثمان وكانت تعظ النساء وتوجههن لعـلاج المرضى والجرحى والزهد فى الدنيا .

وكان ال الأمير عثمان دقنه من وجوه سواكن وكان ثلاثة من أعمامه قد نالوا رتبة البكوية من الدرجة الثالثة من الحكومة المصرية .

وللامير عثمان من الاخوة الذكور على وعمر وسلطان وجيلانى واختان هما عائشة وحايمة . ولد الأمير عثمان دقنه بمدينة سـواكن

ودن أبوه الشيخ أبو بكر دقنه متبحرا فى علوم الدين فحفظ الأمير على يدى والده القرآن واتم المصحف قبل ان يبلغ العاشره من عمره وكانت أمه تعلم البنات القـرآن فى الخلوة فشب الأمير عثمـان فى جوديني فاحب علوم الدين وتبحر فيها والتحق ببيت العلماء (المعهـد العلمى) بسواكن ودرس علوم التوحيد والتجويد والنحـو وغيرها ولم يكتف بهذا بل سـافر الى (موخا) وهى مدينة فى اليمن حيث درس فى معاهدها حتى نال شهادة العالمية . وبجانب هذا درس الأمير عثمان علم الزايرجة وهو علم التنجيم بواسطة اعـداد ترمز للحـروف يستطيع الانسان بواسطتها كشف الغيب . ولقد كان الدقنـاب آهل الأمير عثمان يعملون بالتجارة وهى حرفة اجـدادهم اذ جاء جـدهم عبد الله التركى متاجرا لسواكن سنة ٩٥٢ هـ واستمر الدقناب يطورون تجارتهم حتى أصبحوا من أكبر تجار سواكن وكان عمه على دقنه من أكبر تجار سـواكن وكان يتمتع باحترام الجميع وآكبارهم وطـاعتهم لتقواه وغناه وشجاعته وقوة شخصيته .

والتحق الأمير بابن عمه على دقنه ليعمل فى التجارة مهنه أهله ورافق الأمير ابن عمه على دقنه فى رحلاته التجارية لبربر والخرطوم ورفاعة والأبيض حيث انشأ صداقات واسعة كما أنه تزوج من بربر من عائلة تسمى (آل الضوى) وفى اثناء هذه الرحلات كان الأمير وابن‌عمه يتطارحان الشعر بالبجاوية معبرين عن شوقهم عندما يشـتد بهم الحنين الى وطنهم سواكن وفى هذه الفترة ضيقت الحكومة الانجليزية الخناق على التجار وفرضت رقابتها على البحر الأحمر هادفة توسيع نفـوذها كل هذا تحت ستار محاربة الرقيق بينما كانت بريطانيا محتكرة تصدير الرقيق لأمريكا وفى عام ١٨٧٧ م أرسل بعض تجار سـواكن تجـارة هائلة للحجاز وأوكلوا عليهـا بعضهم وكان للامير عثمان بضـائع فى هذه القافلة وقبض على البضاعة ومن معها من التجـار وزج بهم فى

السجن فسمع الأمير عثمان بالخبر فما كان منه الا أن سافر للحجاز وقابل والى الحجاز وادعى بأنه صاحب هذه البضاعة كلها وأن المقبوض عليهم أبرياء وطلب من الوالى أن يوضح له التهمة الموجهة لهم ولم يكن هنالك تهمه معينه واستطاع الأمير عثمان بماله من حنكة أن يقنع الوالى الذى أمر باطلاق سراح الأمير ومن معه من التجار فسلمهم بضاعتهم . ولكن الحكومة الانجليزية لم تكتف باجراءات والى الحجاز نسبة للمضايقات التى سببها لها الأمير عثمان وخاصة عند ما زادت الحكومة الضرائب على التجار فتزعمهم الأمير وأمرهم بالاضراب واستمر اضرابهم حتى خفضت الحكومة الضرائب لتوجع الى ما كانت عليه من قبل ولم تترك الحكومة الانجليزية حادثة القافلة التى قبض عليها فى الحجاز تمر بل أمرت بمصادرة كل أموال وممتلكات الدقناب لاتهامهم بالاشتراك فى تجارة الرقيق . وعمل الأمير متعهدا لجلب الماء للمحلج واستمر فى ذلك ونفسه تحدثه بالثورة اذ أن الأمير كان قد تنبأ بما يعرفه من علم الزايرجة بأنه سيقود ثورة ضد الكفار وسيقضى عليهم . وعندما قامت الثورة العرابية فى مصر عام ١٨٨١ حاول الأمير اثارة المواطنين فى سواكن ضد الحكومة معتقدا أن الوقت قد حان ولكن حركته أخمدت فى المهد وأجتمع بعض أعيان سواكن وقرروا الثورة ضد الحكومة ولكنهم أدركوا أنه من المستحيل قيام ثورة فى سواكن نسبة لانها مدينة محصورة كما أنها وثيقة الاتصال بانجلترا ومصر عن طريق البحر ومن السهل ضرب أى حركة تقوم فيها ولكن رفض الدقناب (أهل الأمير) الاستسلام وبدأوا يدعون الناس للثورة ويعقدون الاجتماعات مما أحدث بعض الاضطرابات . ونتج عن هذه الاحداث أن تكون مجلس من بين اعضائه الخليفة عبد الله حمد نور والخليفة محمد الصافى وعثمان بك شيخ .

وجاء قرار هذا المجلس بنفى الأمير عن سواكن وسافر الأمير الى بربر حيث واصل عمله التجارى بين [illegible] وجده .

وفى احدى الرحلات جاء الأمير بكمية من ريش النعــام والعــاج وعبر بها البحر الى جدة وهناك باعها ثم رجع الى سواكن ومكث بها فترة قصيرة واستطاع أن يجمع حوله بعض الناس وخرج بهم ليلا الى (الفوله) التى تقع خارج سواكن وأقسمت الجامعة على المصحفبأن تحارب الحكومة وعلمت الحكومة بهذه الحادثة فاعتقلت الأمير لفترة ولكنها أطلقت سراحه خوفا من اثارة انصار طائفة المجاذيب .

بعد هذه الحادثة انتاب الأمير شعور غريب فانقطع الى العبادة سنة كاملة وفرض على نفسه صيامها كلها وهــو يمنى النفس بان اليــوم الموعود لانتصار الشعب السودانى قريب .

وكلما مر يوم تزداد كراهية الأمير للاستعمار وظلمه وتسلطه على الأهالى . وكان أن القت البــارجة الحربيــة (وايلد سوان) القبض على بعض ســفن الدقنــاب فى مرسى الشيخ برغوث (بورتسودان) وســافر الأمير للشيخ برغوث حيث عرف من بعض الناس أن الوقت قد حان للثورة وان ثورة الامام المهــدي قــد نضجت فقرر الأمير اللحاق بالامام المهدى فى غرب السودان .

الفصل الثالث

الثورة المهدية

المهدى لغة هو اسم المفعول من هدى ، يهـدى هديا . والهـدى نقبض الضلال ومعناها الرشاد . ولفظه المهـدى بمعناها الدينى واللغوى هو : رجل هداه الله فاهتدى .

وروى ابن منظور فى لسان العـرب أن ابن كثير قال : المهـدى هو الذى هداه الله الى الحق ، وبه سمى المهدى الذى بشر به رسول الله (ص) .

والقرآن يشتمل على ايات تدل على تكليف أناس بأمر هداية الناس العامة ومحاربة الضلالات .

قال تعالى فى سورة النـور الآية ٥٥ : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبـلهم وليمكنن لهم دينـهم الذى ارتضى لهم وليبـدلنهم من بعـد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » وفى تفسير هذه الآية روى ابن كثير الآتى « قـال مسلم فى صحيحة حدثنا ابن أبى عمر سفيان عن عبد الملك بن عمر عن جابر بن سمره قال (سمعت رسول الله يقـول « لايزال أمـر الناس قاضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا . ثم تكلم رسول الله (ص) كلمة خفت على ، فسألت أبى فقال : كلهم من قريش . ورواه البخارى من حديث شعبه عن عبد الملك بن عمير قال ابن كثير : وفى هـذا الحدبث دلالة

على أنه لابد من وجود أثنى عشر خليفة عادلا وليسوا بأئمه الشيعه، فان كثيرا من هؤلاء لم يكن لهم من الأمر شيئا ثم لا يشترط ان يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمه متتابعا ومتفرقا . وقد وجد منهم اربعة على الولاء هم الراشدون . ثم كانت بعدهم فتره ، ثم وجد منهم من شاء الله . ثم قد يوجد منهم من شاء الله ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله ، ومنهم المهدى الذى يطابق اسمه اسم رسول الله وكنيته تطابق كنيته يملا الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا » .

كذلك جاء فى سورة هود الآية ١١٦ « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد » وفى سورة الانبياء الآية ١٠٥ جاء « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون » وجاء فى سورة آل عمران الآية ١٠٤ « ولتكن منكم أمه يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وجاء فى سورة الرعد الآية ٧ « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » وفى سورة الحج الآية ٤١ جاء « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاه وآمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

وجاء فى سورة المائدة الآية ٥٤ « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذله على المؤمنين » كل هذه الآيات صريحة فى تكليف أفراد بالهداية والرشاد وورويت من احاديث رسول الله مطابقا لهذا المعنى نحو قوله .

« ان الله ليبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد دينها » ورويت أحاديث نبوية تذكر اسم المهدى بوجه خاص ، وقد أخرج جماعة من الائمة هذه الاحاديث ، منهم : الترمذى وابو داود ، والبزاز وابن ماجه ، والحاكم ، والطبرانى ، وابو يعلى الموصلى ، واسندوها

الى جماعة من الصحابة رفعوها الى رســـول الله هم : على ، وابن عباس ، وطلحة ، وابن مسعود ، وابو هريره ، وأنس وابو ســـعيد الخدرى ، وأم حبيبة ، وأم ســلمة وثوبان وقره وابن اياس وعلى الهلالى وعبد الله بن الحارث .

ولقد بلغت الأحاديث المروية عنه صلى الله عليــه وســلم فى كتب هؤلاء الائمة أكثر من ثلاثين حديثا تخبر عن المهــدى . لقــد تعرض بعض النقاد لهذه الاحاديث فرموا بعضها بالضعف . ووجدوا بعضها حسنا ، وبعضها على شرط الشيخين وكان ابن خلدون أشــهر هؤلاء النقاد : ففى المقدمة تناول ابن خلدون أكثر تلك الأحاديث فطعن فى صحة أكثرها ، ولكنه اعترف بقوة أسانيد بعضها مثل الحديث الآتى « روى الحــاكم عن طريق عوف العــربى عن أبى الصــديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى تملا الأرض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتى من يملاها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا » وقال فيــه الحاكم « هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

وحديث آخر رواه الحاكم عن طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمه عن مطر الوراثى ، عن أبى الصديق الناجى ، عن أبى سعيد ، أن الرسول (ص) قال «فتملأ الأرض جورا وظلما فيخرج رجــل من عترتى فيملك سبعا ، أو تسعا فيملا الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما » .

واتنقد ابن خلدون فكرة المهدية فى الاسلام لأنهــا كانت تهــدد الاستقرار الذى يؤيده ابن خلدون ولاستنادها على عصبية بنى هاشم وقريش ولاختــلاطها بأراء شــيعية وأخرى صــوفية فأحاطت بهــا المطاعن .

وابن خلدون بالرغم من موقفه الناقد هذا ختم حديثه بما يؤكد صحة بعض الأحاديث النبويه المروية عن المهدى اذ قال « فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الائمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان . وهى كما رأيت لم يخلص من النقد منها الا القليل » .

هكذا نرى من النظر فى أدلة الاسلام : الكتاب والسنة أن ثمة معانى تشير لقائمين بأمر الدين بعد انفراط عقده . وكان كثير من أهل السنة يقولون بمجىء مصلح للعالم يبعث به الله ويسمونه المهدى أى الذى هداه الله الى الطريق السوى ، والمهدى بهذا المعنى متوفر الدليل عليه فى الآيات المذكورة . ومهما كانت التفاصيل فان هذه الأصول أفهمت كثيرين بمجىء قيادة مختارة لاصلاح فساد الأحوال .

وفى الادلة الاسلامية أيضا ما يشير الى اتيان قيادة ملهمة يلهمها الله الصواب ويهديها . قال تعالى فى سورة غافر الآية ١٥ « رفيع الدرجات ذوالعرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » وقال تعالى فى سورة الحديد الآية ٢٨ « اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به » .

وجاء فى حديث الرسول ما يبين أن لله علاقات روحية مباشرة بالبشر عن طرق منها الرؤيا الصادقة قال « الرؤيا الصادقة جزء من ٤٦ جزءا من النبوه » .

والالهام معروف فى حياة المسلمين فعمر بن الخطاب كان يلهم المعنى ثم ينزل القرآن مؤيدا له . وروى ابن سعد أن الصحابى الذى نقل الأذان أول مرة للنبى نقله عن رؤيا رآها فى منامه . وقد روى الامام الاشعرى أنه استلهم مبادىء مذهبه كما قص هو فى رؤى منامية ظهر له فيها النبى عليه الصلاة والسلام وتحدث الامام الشافعى عن استخاره الله قبل اقدامه على العمل الكبير الذى قام به والامام الغزالى كان أوضحهم عبارة فى هذا الصدد : روى الغزالى أنه بعد

أن عاش تجربة روحية استمرت عشر سنوات يصف حال الذين انصرفوا للحياة الروحية كالآتى :

« ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد » حتى قال « وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم . وكرامات الأولياء على التحقيق هى بدايات الأنبياء » .

ان الالهام وارد فى التراث الاسلامى ، وارد ومدعم بالدراسات فى التراث الانسانى عامة .

ان فى الادلة الاسلامية مكانا واضحا لقيادة مهتدية مرشدة مصلحة للمفاسد يؤهلها صلاحها لاستقبال الهامات روحية .
والنصوص الواردة فى هذا الصدد فى القرآن وفى بعض الأحاديث تخصص القول وهذه هى الأصول الاسلامية للمهدية .

لقد تدهور أمر الخلافة فى الاسلام ونتج عن ذلك مساوىء ومظالم اجتماعية وسياسية واقتصادية . واتجهت انظار كثيرين فى العالم الاسلامى لالتماس خلاص وشيك على يد قيادة مهدية منتظرة.وتعقدت فكرة المهدية لظروف خارجية وداخلية . وكان أهل السنة يرون الامامة « أو الخلافة » رئاسة عامة فى شئون الدين والدنيا وهى ليست من أركان الدين وعقائده . بل من الفروع المتصلة بأفعال المكلفين . وعلى النقيض من هذا كان موقف الشيعة : قال المجلسى فى كتابه (حياة القلوب) « الامام يبعثه الله للخلافة والنيابة عن حضرة صاحب الرساله» والامامة عندهم ركن أساسى من أركان الدين . فالمهدى عند الشيعة

امام يرجع بعد غيبة ، وينتقم لال البيت ويمحو الظلم ، ويستمد العلم من كتب غير القرآن .

هكذا نجد أن الشيعة والصوفية وجدوا أن المغيبات والبواطن والاسرار تصنع واحات من الأمل فى صحراء التماسة والاخفاق وكلما طاردوا تلك الواحآت فارقوا الاعتدال .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كان العالم الاسلامى يعانى من تفرق فى الكلمة وظلم واضطهاد ويتوق المسلمون لاتحاد الكلمة وتشد خيالهم وتشوقهم تجربة صدر الاسلام الأول ولم تكن السلطة السياسية المتحكمة فى البلاد الاسلامية تمثل كيانا شرعيا وعانى الناس من مظالم اجتماعية واقتصادية كثيرة . وفكر المسلمون فى طرد المستعمر الأوربى . وتطلعوا لخلاص ملح من سوء الحال هذا واقامة وضع فيه سلامة الدين وفى التراث الاسلامى أدلة كافية على نهضة قيادة توحد بعد تفرق يدعم هدايتها الهام من العناية الالهية .

ولم يكن السودان بأحسن حال من بقية البلدان الاسلامية فلقد كان يرزح تحت نير الحكم التركى وركب الفساد الحياة الدينية . ولم يعد فى الطبقات القيادية المعهودة اصلاح الحال . وتسلط الحكام على الرعية نهبا وسلبا وحرمانا . وانتشر الظلم الاجتماعى وجردت من الحقوق غالبية السكان وانعزل الحكام عن الرعية وأطلقوا زبانيتهم من الباشبوزق لجمع الضرائب الفادحة من الأهالى بالضرب والتعذيب وانتشر التمييز العنصرى . وأمام هذه المظالم تطلع الناس فى السودان للخلاص على يد صاحب الزمان .

وبينما مرجل الفساد يغلى خرج الى الدنيا مولود جديد فى جزيرة « لبب » احدى جزر النيل الواقعة بالقرب من مدينة دنقلا فى شمال

السودان . سمى هذا المولود الذى جاء فى سنة ١٨٤٤م محمد أحمد ويدعى والده السيد عبد الله وهو من سكان جزيرة « لبب » وينتهى نسبه الى الحسين بن على بن أبى طالب مثل معظم سكان جزيرة « بب » ولهذا كانت تعرف « بجزيرة الاشراف » وكان السيد عبد الله يعمل فى بناء المراكب النيلية يساعده فى ذلك ابناؤه الكبار الا أن محمد أحمد هوى العلم منذ أن كان يافعا ورغب فى الارتشاف من مناهله ، مريدا من ذلك أن يفقه نفسه فى الدين ، وكانت رغبته هذه تزداد يوما بعد يوم فأخذ يلج مدارس القرآن من مكان الى مكان فدخل كتاب قرية كررى ثم انتقل الى الخرطوم ولكنه وجد العاصمة لها ضجيج وبريق لا يهيئانه للنسك والعبادة فآثر ان يرحل الى احدى قرى الجزيرة ليتلقى العلم على يد أحد الاساتذة هناك ومنها سافر الى (خلاوى) الغبش بالشمالية حيث درس على يد الشيخ محمد الخير .

وضع محمد أحمد لنفسه أسسا للحياه منذ حداثته ولم يشأ أن يحيد عنها حتى اذا وصل سن الشباب تاقت نفسه للتصوف — وطرق عدة أبواب من العمل بعد أن نال الاستاذية على يد الشيخ محمد شريف فهاجر الى جزيرة (أبا) على النيل الابيض قرب مدينة كوستى ، وفى جزيرة (أبا) سنة ١٨٦٨ م أخذ نصيبه من الخلود الى الخلوة والعبادة . وما كان من الوقت جعله لتعليم غيره من الناس وسار ذكر الشاب المتعبد مع المسافرين عبر السودان الواسع الارجاء فذاع صيته . وكان الشيخ محمد أحمد نفسه من المتلفتين الراجين صرخة الخلاص وهو مشغول بقضايا الاصلاح الدينى والاجتماعى يتصل برجال الدين ويسافر فى أنحاء السودان لعله يجد القيادة المأمولة . وبينما هو فى تعبده وتأمله وتفكره حسم له الأمر قال « هجمت » على الخلافة الكبرى المهدية « أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأننى المهدى المنتظر » .

وفى مارس سنة ١٨٨١ أعلن الشيخ محمد أحمد بانه المهدى المنتظر الذى سيملا الأرض عدلا وانصافا بعد أن ملئت جورا وظلما . وبدأ الامام يرسل خطاباته ومنشوراته لكل زعماء الطرق الدينية بالسودان كذلك القضاه والأعيان وزعماء القبائل طالبا منهم الانضواء تحت رايته وكان من ضمن الذين كتب اليهم وتراسل معهم الشيخ الطاهر المجذوب والأمير عثمان دقنه .

ولم تكن دعوة الامام المهدى من أجل سلطان أو مصلحة شخصية . ولكنها دعوة لامام القرن الذى كلفه الله ورسوله بسد فراغ القيادة التى شغرت بخلو كرسى الخلافة عن المصطفى فهو خليفة المصطفى وزمانه مندرج فى زمان الصدر الأول من الاسلام . وفى الجانب الروحى تبحث الدعوة على الزهد فى الدنيا والاشتياق للقاء الله وتقرن الدعوة ما بين الزهد فى الدنيا والاستعداد الدائم للآخرة والاشتياق للقاء الله .

وهذه المعانى تلتقى فى نفس المؤمن وتربط الجندية بالفداء وأطلق على اتباعه (الانصار) .

ولقد اشتملت الدعوة سياسيا على المطالبة بقيادة مفوضة مسئولة أمام الله عما تفعل ويفعل عمالها. وهذه القيادة يسندها جيش شعبى فدائى يجند كل طاقة الأمة لمهمة احياء الاسلام وتحرير دياره فى كل اقطاره. واقتصاديا أن تكون الثروة الاساسية فى يد بيت المال وأن يكسب الأفراد معاشهم بالعمل الحلال وحده والمال وسيلة لا غاية . واتجهت الدعوة اجتماعيا لازالة مظاهر الترف كلها وازالة الفساد ومسبباته من خمر وتنباك . وفساد جنسى وغيرها ، ومحاربة العادات السودانية المستنكرة . ورفع الامام المهدى المذاهب ونادى بالتمسك بالكتاب والسنة وحدهما ، كما اعترف بفضل رجال الطرق الصوفية ورفع كذلك

طرقهم . ودلل على بطلان خلافة آل عثمان واعتبر ما قبله فترة ضلال، ودعوته هذه لقيام عهد جديد وركز على الجهاد وبرر ان الاتباع لايمنع التجديد وان لا واسطة بين العبد وربه وندد بالعلماء الذين صار الدين فى ايديهم وصاروا أداة فى يد الحكام الفاسدين . ولم تكن الدعوة لتحرير السودان فقط بل لتحرير كل الأقطار الاسلامية .

وبعد ان مهد الامام المهدى لدعوته التف حوله كل صديق لدعواه. وكان أول صدام له ضد الحكومة هو فى جزيرة أبا فى ١٢ اغسطس سنة ١٨٨١ واوقع أنصار المهدى المسلحون بالرماح والعصى والسيوف والحجارة بجنود الحكومة المسلحين بالبنادق والمدافع وأحدث ما أخرجته العبقرية العسكرية فى ذلك الوقت وكان هذا النصر معجزة وأيقن الناس أنه لولا تأييد الله لما حدثت تلك المعجزة .

وهاجر الامام المهدى من جزيرة أبا الى الغرب حيث استقر بجوار جبل (قدير) حيث هاجر اليه عدد كبير من الانصار . واستطاع الامام المهدى ان يلحق هزائم متلاحقة بالحكومة فأباد حملة راشد بك أيمن التى تحركت لمباغتته من فاشوده ـ كما استطاع القضاء على جيش يوسف باشا الشلالى وغنم منه الكثير من الاسلحة والذخائر والعتاد الحربى واستمر الامام المهدى ينتقل من نصر الى نصرفاستسلمت له (بأره) وهى ثانى مدينة فى كردفان بعد حصار قصير كما سقطت فى يده مدينة الأبيض بعد صدام وحصار طويل .

●●●

الفصل الرابع

الصوفية بالشرق

التصوف نزعة دينية تجعل الانسان زاهدا في الحياة المادية متجها نحو المعاني الروحية وهو بهذا ظاهرة عرفتها كل البيئات باختلاف بينها في التفاصيل ولقد كانت فى شرق السودان فى فترة الثورة المهدية هذه طوائف دينية تقتسم ولاء الأهالى الدينى أولهم طائفة الختمية .

الختميـــة :

وطائفة الختمية أسسها السيد محمد عثمـــان المرغنى المكى الملقب بالختم وسمى المرغنى ومعناها الأمير الغنى كما لقب بالختم أى خـاتم الطريقة ولقد عاش بالحجاز وتعلم على يد السيد احمـــد بن ادريس واقتبس طريقته من (النقشبندية) واستطاع أن يكون اتباعا ومريدين فى الحجاز وذاع صيته وقويت شوكته فى عهد الحكم التركى على الحجاز اذ احتضنه الأتراك وقووا مركزه خاصة عند قيام الامام محمد ابن عبد الوهاب الذى كان ينادى بالرجوع الى الاســـلام الصـحيح وترك الخرافات والمعتقدات الباطلة فوقف السيد الختم مع الاتراك ضد ابن عبد الوهاب واتصل ببعض السودانيين فى الحج ووجد منهـم كل ترحيب فقام بزيارة الى السودان وتزوج من السودان وسافر ابنه اليه فى الحجاز وعلمه الطريقة الختمية ، واستطاع السيد الختـم أن يطوف ببقاع كثيرة من شرق السودان وجمع حوله المريدين وعنـــدما قامت حركة الاستقلال بقيادة الامام المهدى كان يقود طائفة الختميـة السيد محمد عثمان حفيد السيد الختم وكان مقره قرية الختميـة التى

أسسها بجوار مدينة كسلا واعتنق الطريقة الختمية من أهالي كسلا الحلنقة والشكرية وقبائل البطانة الاخرى ولما كانت سواكن مركز من مراكز الختمية اعتنقت بعض قبائل الشرق الطريقة الختمية وهذه القبائل هي الامارار والبني عامر وجزء قليل من الارتيقه

وكان القائم بأمر طائفة الختمية بشرق السودان عند ما قامت حرب الاستقلال محمد عثمان بن السيد الحسن المرغني وكان يتنقل بين سنكات وسواكن ومصوع ومثلما كان جده مقربا للحكومة التركية في الحجاز كان هو وأتباعه مقربين للحكومة التركية في السودان مما جعل انصار الطوائف الأخرى يحنقون على الحكومة فلقد لعب السادة المراغنة وخلفاؤهم دوراً مهما في تخذيل الأهليين من الانضمام الى الأمير عثمان وعملوا على نشر الدعاية بتكذيب المهدية .

المجاذيب :

وأما الطائفة الثانية فهي طائفة المجاذيب وهي احدى فروع الطريقة الشاذلية التي أسسها الامام أبوالحسن الشاذلي المتوفى سنة ١٢٥٨ وهو عالم وفقيه وصوفي ، ولقد انتشرت هذه الطريقة في مراكش في القرن الخامس عشر على يد أبي محمد عبد الله محمد سليمان الجزولي. ويقال ان احدى بناته تزوجت الشريف حمد أبي دنانه الذي نزح الى السودان وسكن هو وابنه المحمية في عام ١٤٤٥م وانتشرت طريقتها على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسن الذي كان قادريا ثم صار شاذليا ومن بعده تحولت الخلافه الى الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١٧٧٦م وكان مقره الدامر وقد سافر السيد حمد المجذوب عم الشيخ الطاهر المجذوب الى الحجاز وهناك التقى بالسيد احمد بن ادريس ولازمه مده ثم عاد من الحجاز بعد ان نال من استاذه ما نال من العلم وتحصل على درجة عالية في العلوم الفقهيه والعلوم النقلية والعقلية والتصوفه واستوطن سواكن وترامت شهرته الى أطراف

البلاد وصار له اتباع يعدون بالالوف وكان محبوبا عند الناس واكثر اتباع هذه الطائفة كانوا من الهدندوه خاصة الدقناب والارتيقة وهم الذين أيدوا الأمير مع من أيده من الدقناب والهدندوه واخلصوا للامير عثمان .

وكان شيخ طائفة المجاذيب عندما قامت الثورة المهدية الشيخ الطاهر المجذوب واسمه الطاهر الطيب المجذوب من أفراد اسرة المجاذيب المشهورة بالغنى والعلم تلقى تعليمه فى الدامر ثم رحل الى سواكن سنة ١٨٥٤ فكان المسئول عن هذه الطائفة فى سواكن وشرق السودان ، وقد أسس جامعا ومدارسا للارشاد والتعليم الدينى فتعلم فى هذه المدارس الكثيرون وكانت بينه وبين الامام المهدى مكاتبات وهو من أوائل رجال الصوفية الذين ايدوا الامام المهدى وسمعت الحكومة بكتاباته للامام المهدى من سواكن ولولا نفوذه الدينى لقامت باعتقاله اما الطوائف الأخرى التى كانت موجودة والتى لاترقى الى قوة هاتين الطائفتين فهى .

القادرية :

ويستمد اسمها من الشيخ عبد القادر الجيلانى وهى بعد الشاذلية أول طريقة دخلت السودان ولقد أسسها فى القرن الثانى عشر الميلادى الشيخ عبد القادر فى العراق ودخلت السودان فى أوائل سلطنة الفونج فى سنة ١٥٤٥ م وذلك حيث قدم تاج الدين البهارى من بغداد الى السودان تلبية لدعوه أحد تجار أربجى الذين قابلوه فى الحج واثناء تلك الزيارة انضم للطريقة القادرية بعض اعيان البلاد مثل الشيخ عجيب المانجلك شيخ العبد لاب والشيخ محمد الأمين عبد الصادق جد الصادقاب والشيخ بانا النقا الغدير جد اليعقوباب ، والشيخ عبد الله لوغجى جد العركيين والشيخ محمد سوار الدهب جد السواراب.

السمانية :

هذه الطريقة أصلها فرع من القادرية ومؤسسها الشيخ محمد الأمين السماني المدفون بالمدينة المنورة وكان الشيخ أحمد الطيب البشير تلميذا له فقضى معه سبع سنوات ثم عاد للسودان وأسس الطريقة السمانية . بعد وفاته تفرغ منها فروع على رأس بعضها هذا الشيخ الطيب نفسه وعلى رأس بعضها كبار خلفائه ومريديه مثل الشيخ القرشي والشيخ البشير والشيخ برو .

الخلوتيـــة :

وهي طريقة يقال ان الذى اسسها هو الشــيخ محمود العركى وكان فقيها وروى انه عندما عاد للسودان من مصر وجد ان النســاء لايدخلن العده بعد الموت والطلاق فعلم الناس العده .

التجانية :

هي طريقه اسسها الشيخ احمد التجانى فى الجزائرعام ١٧٨١م ودخلت السودان فى منتصف القرن التاسع عشر بعد سقوط دولة الفونج .

السنوسية :

وهى تنسب للشيخ محمد بن على السنوسى المتوفى عام ١٨٥٩م ولقد لقيت طريقته نجاحا كبيرا فى شمال افريقيا وغربها وامتدادهــا الى غرب السودان والصومال .

الاسماعلية :

وهى طريقة اسسها السيد اسماعيل الولى وقد كان من خلفاء الختمية ثم عاد الى طريقة مستقلة سميت الاسماعلية ولاصلة لها بالاسماعلية الشيعية المنسوبة لاسماعيل بن جعفر الصادق .

الفصل الخامس

(الشرق قبل الثورة)

كانت مدينة سواكن مستعمرة برتغالية والغرض من الاستيلاءعليها كان تأمين طرق التجارة البرتغالية عن طريق البحر الاحمر وفي سنة ٩٣٧ م استطاع الاتراك العثمانيون هزيمة الاسطول البرتغالي بالبحر الاحمر و احتلوا كل المدن التى كانت تحت سيطرتها مثل سواكن ومصوع وضمتا اداريا الى (والى) الحجاز وعين الاتراك محافظا تركيا على سواكن وتركوا معه حاميه من مائة جندى لحفظ السلطة والنظام الادارى فى كل ما يرد من البحر وكانت داخلية سواكن تحت مسؤلية مندوب من قبيلة الارتيقة . أما ضواحى سواكن وباديتها فلقد

كانت تحت سلطان دولة الفونج مثل باقى اجزاء السودان .

وعندما فتح محمد على باشا السودان عام ١٨٢١ تنازل السلطان العثمانى عن سواكن ومصوع .

كان شرق السودان مثله مثل باقى المستعمرات التركية يرزح تحت قيود الظلم والاستبداد بصورة لم تفرق بين سكان سواكن اوباديتها فتساوا فى معاناتهم وقد تفنن الاتراك فى تعذيب الاهالى واضطهادهم فمن أنظمة التوظيف فى العهد التركى الا يقبل فى دخول المعاشرأى موظف وطنى أو اجنبى فكان الموظفون يضيفون اسم اى مدينة تركية بعد اسم ابيهم مثل محمد زكى مشيلى وموصلى واسطنبولى وكوركتلى نسبة الى مدينة ميش واسطنبول وكركوت وبهذه الطريقة نال اهل سواكن المعاشات .

كانت الضرائب الباهظة مظهرا مميزا للعصر التركي حتي ضج منها الاهالي وفي احدى المرات أضرب تجار سواكن واقفلوا متاجرهم احتجاجا على فداحة الضرائب وعندما ارادت الحكومة التركية أنشــــاء مباني في جزيرة ســواكن أرغمت الفقراء من ســكان جزيرة ســواكن على بيع أراضيهم للحكومة والهجرة الى ضواحي سواكن كما قامت الحــكومة بتشديد الرقابة على البضائع والتجارة بحجة منع تجارة الرقيق فكان الجنود يستغلون نفوذهم ويلبسون التهم بكل من لا يدفع لهم مبلغــا من المــال .

وقامت الحكومة التركية باصطفاء المراغنة زعماء الطائفــة الختميــة واضطهدت كل الطوائف الدينية الأخرى وأصبح المدخل الوحيــد لرضاء الاتراك هو ارتداء شعار الختمية .

كانت الحكومة التركية قد استعانت بالشايقية لتوطيد اقــدامها في الســودان فكانوا يقــومون بجمع الضرائب وتعــذيب الاهالي ولمــا كانت بينهم وبين بقية السودانيين خصومات سابقة فانهم استغلوا موقفهم الجديد وانتقموا من كل اعدائهم القــدامى ممــا زرع في نفــوس المواطنين الكراهية في الحكم التركي .

لم يكن شرق السودان منفصلا عن بقية الســودان ولا عن العــالم الخارجي وجدانيا فكان يتجاوب مع كل الحركات الثورية فعندما قامت ثورة محمد بن عبد الوهاب في الحجاز لاعادة الاسلام الى سيرته الأولى هاجر بعض مناصرية الى سواكن ونشروا دعوتهم ضد الحــكم التركي كما أن اهالي سواكن تجاوبوا مع ثورة أحمد عرابي في مصر وعندما أعلن الامام محمد أحمد المهدى الجهــاد من اجل طرد المستعمر وقف معه الناس في شرق السودان قلبا وقالبا ولكن كان بعد المسافة حائلا

دون انتقالهم للامام المهــدى وظلوا ينتظرون الوقت المنــاسب لاعلان مبايعتهم ولم يمنع هذا من تبادلهم معه الرسائل .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعلن فيهــا البجة ســكان شرق السودان ثورتهم ضد المستعمر فلقد عرف تاريخهم بسلسلة من الحروب ضد كل من حاول استعمار السودان فهم الذين حاربوا قدماء المصريين والبطالسة والرومان والعرب والايوبيين وأخيرا الفتح التركى المصرى فى القرن التاسع عشر وهكذا كتبوا تاريخهم بدمائهم التى بذلوها فى الدفاع عن أوطانهم منذ فجر التاريخ .

الفصل السادس

هجرة الأمير الى المهدى

كان الامام المهدى قد مهد للثورة بالاتصال والكتابة الى كل زعماء الطرق الدينية والأعيان فى كل انحاء السودان ومن ضمن الذين أتصل بهم الامام المهدى الشيخ الطاهر المجذوب والأمير عثمان دقنه .

وسبق الأمير عثمان فى الهجرة الى الامام المهدى من أهالى شرق السودان الشيخ محمد طاهر بن عبد الله الحاشى من قبيله الشبوديناب وهى احدى فروع الهدندوه وهو من الزعماء الدينيين للطريقة القادرية وسافر معه أربعون شابا من قبيلة الشبوديناب واشتركوا جميعا فى واقعة الجزيرة ابا سنة ١٨٨١ م واستشهدوا جميعا فى هذه الواقعة . هاجر الأمير عثمان الى الامام المهدى سنة ١٨٨٣ وهاجر معه وفد من أعيان سواكن ونزل الأمير وجماعته عند أصهاره (ال الضوى) بمدينة بربر وتخلف بعض أفراد الوفد فى بربر لما اصابهم من تعب واجهاد من مشقة السفر وواصل الأمير عثمان سيره حتى وصل الامام المهدى فى مدينة الأبيض بعد أن تم فتحها للامام المهدى فاستقبله الامام المهدى بكل حفاوة واكرام وكذلك الوفد الذى حضر معه . وكان الامام المهدى قد عرض امارة شرق السودان على الشيخ الطاهر المجذوب الذى رشح للامارة الأمير عثمان فى خطاب سلمه الأمير للامام المهدى يقول فيه الشيخ الطاهر المجذوب :

ان عثمان دقنه هو من خيرة مريدى وأصدق اتباعى وأنه من رجال الحزم والعزم كما أنه لا يفضل ابناءه النازلين من صلبه عليه وان

امارة شرق السودان هو خليق بهـا أكثر مني وانني لا استنكف أن أكون تابعا لأفضل مريدي (عثمان أبو بكر دقنه) وأكون مستشارا له ومدبرا لأموره وأنصح لكل أتباعي القيام بنصرته ومؤازرته وان المانع لي من قبول هذا الأمر لنفسي هو الطعن في السن وعدم القدرة على الانتقال والقيام والقعود اذ هي من ضروريات هـذا المنصب ويكفيني أن أكون أول من يذعن بالطاعة لعثمان وفي ذلك من التعضيد والحض لعموم اتباعي ما يقرن عمله بالنجاح .

فولاه الامام المهدى امارة شرق السودان ولمـا اجتمع الأمير عثمان بالامام المهدى وجد أن تجار اقليم البجة المقيمين بالأبيض قد انضموا تحت لواء الأمير عبد الرحمن النجومى نسبة لقلتهم وكان المقدم عليهم عمر بن أبى بكر دقنه وهو شقيق الأمير عثمان ولقد أصيب بحمى لم تمهله طويلا حتى قضت عليه فخلفه السيد المـاحى الشريف حسين والتجارهم الشريف قبسه والشريف محمد على كرار والشريف عبد الله حسين القاضى وأبو على محمد ايرا التنكيرابى وأنور سليمان على طالب وأبو بكر الكرار الويلعليابى والفكى مقدم القرعيبى ومحمد على محمد الحاج وأبو فاطمة وأخوه شوكين الشرعابى والأمين هاملياى وأخـوانه محمد وأحمد شملة من التنكيراب وموسى الطيب وباونين وعبد الله وعيسى كرشون ومجذوب أبو بكر (من الشقلى) وعمر كشبة من النغراب من الهدندوه على الجيلانى (من الشـبوديناب) ومعه غلام اسمه حامد من اللايكشة .

حمل الأمير معه أربعة خطابات منها خطاب الامام المهـدى الى أهل سـواكن وهو بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله الوالى الـكريم والصلاة على سيدنا محمد واله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهـدى بن السـيد عبد الله الى كافة احبـابه فى الله المؤمنين بالله

وبكتابه ومن تبعه ووافقــة على لقامة الدين ونصرته . أما بعد فالذى نعلمكم به ايها الأحباب أن الأمر كله لله واليه المرجع والمــاب . وأنه مالك الملك يوتيه من يشاء وينزعه ممن شاء كما اخبر ذلك فى منشور الكتاب فاتعظوها وتذكروا يا أولى الألباب . وتنبهوا عن الغفلة والغرور بلوا مع الدنيــا التى هى راسب . وتفــكروا فى انفســكم واعتبروا بفوات دول القرون المــاضية ، وبمن هــو أشد منكم قــوة فاقبلوا نصيحتى تتبعها الا اذن واعية وأنا أذكركم بجوابى هذا نصيحة لكم ، ورحمة بكم وشفقة على عباد الله المؤمنين وسببا لنجاة المسلمين وحيث فهمتم ذلك وعقلتموه فاننى موجه اليكم الشيخ عثمان أبو بكر دقنه السواكنى لكى تستعينوا به على اقامة الدين وجهــاد الــكافرين . وجعلته أميرا مباركا لكم لدلالتكم وارشادكم ، فاستمعوا له وأطيعوا أمره ونهيــه ، بمجرد وصــوله اليكم أن كنتم تومنون بالله واليــوم الآخر ، ومصدقين الى المهدى المنتظر فتحزبوا اليــه وأتوه أفواجا من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان ورضــاء الواحــد الديان لأجل اقامة الدين والسنن واشعروا فى ذلك بغاية الجهد وعلو الهمة ، واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع والــكلمة الواحــدة هى التصميم على قتال الترك أهل المديرية التى اتنم فيها ، ثم بعد اتفاقكم بأخذ عهودكم ومواثيقكم مع الله ورسوله وأميرنا النائب عنا فى اقامة الدين ، فخذوا حذركم واهبتكم ، ثم أخبروا أعداء الدين بذلك وبلغوهم أمرنا هذا ، واطلبوا منهم فى الحال أحد الأمرين . اما التسليم واما القتــال فان ندموا وسلموا بصدق وايمان فليسلموكم جميع ما عندهم من الأسلحة ولزومها ، والخزائن بما فيها ومفاتيحها . فان كان كذلك فاحمدوا الله واشكروه ومن الدنيا الساحرة فاحذروا . وان أبوا وســلكو مسالك الحيل فالقتال القتال لتنالوا مقام الصديقين من الرجال ، فاهجموا عليهم جميعا مرة واحدة فانتم حزب الله الغالبون ، واذا اتحد معهم بعض أهل البلد فجميع من هو موافق للشيخ عثمان أبو بكر دقنه ينضم اليه ،

وأخرجوا عنهم خارج البلد واجمعوا العربان التي بأطراف البلد واحكموا فيها الحصار والمضار ، واقطعوا عنهم الموارد بالكلية الى أن يهلكهم الله تعالى كما أهلك أصحابهم قوم كتب الله عليهم البلاء والعذاب فهم فى قبضة الله ونواصيهم بيدة فلا تخشوهم ابدا ء فانهم هالكون باذن الله تعالى وعن قريب يورثكم الله أرضهم وديارهم فعليكم بالعدل والاحسان ، واعلموا أن من بايع الشيخ عثمان المذكور فقد بايعنى ، ومن استشهد معه فكانما استشهد معى ومن صحبه فقد صحبنى . فاعلموا الجميع بذلك وابشروا بما بشر به النبى صلى الله عليه وسلم وهو أن اصحابى كاصحابه . وأن عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى والله ذو الفضل العظيم . بشرط الاتباع ظاهرا وباطنا ، وحيث فهمتم ذلك فلا يفوتكم هذا الفضل العظيم ، فاحرصوا على الصدق والوفاء ، واقتفاء آثار المصطفى صلى الله عليه وسلم واختيار ما عنده تعالى بالجوع والفقر مع الرضاء والتسليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والسلام . غرة رجب سنة ١٣٠٠ هـ ١٣٨٨/٨/٥ م (الم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم بالآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين) .

والخطاب الثانى موجه الى البشاريين والشبوديناب ومشائخ هدندوه التاكا البيرناب وخلافهم والثالث موجه الى الشيخ الطاهر المجذوب وكافة المجاذيب وقبائل الجعليين والرابع موجه الى أهالى البلاد المحيطة بسواكن وكلها مؤرخة فى ٨ مايو سنة ١٨٨٣ ولقد حمل عثمان معه نسخا كثيرة من هذه الخطابات ليتم توزيعها على القبائل ورؤسائها والفقهاء والشخصيات الهامة . وكلف الامام المهدى الأمير عثمان بمحاصرة سواكن وأن يمنع مرور القوات الحكومية عن طريق سواكن بربر الى داخل السودان وان يدعوا الناس فى الشرق الى مبايعة الدعوة المهدية والجهاد فى سبيل الاسلام لتحرير السودان ورجع

الأمير عثمان الى شرق السـودان عن طريق بربر ومنهـا الى أرض البشاريين وسلمهم خطاباتهم فبايعوه بالدعوة وظل يدعو كل من فى الطريق للدعوة المهدية وبايعه خلق كثير من جميع القبائل حتى وصل الى منطقة (ارياب) وهى مقـر قبيله الموسـياب التى تتزعم قبـائل الامارار ولم يجد الأمير عثمان زعيم الموسياب القبلى ولكنه وجـد زعيمهم الدينى الفقيه أحمد بن آدم القلهيابى الذى بايع الأمير وشمر للجهاد ومن أرياب تحـرك الأمير عثمان (لكوكريب) حيث توجـد قبائل الهدندوه وسـلمهم خطاباتهم وبايع الأمير كل من كان موجودا من الهدندوه وفارقه بعد (كوكريب) رفيقاه أو نور وأخوه طه ابناء محمد شهدا ، الذين جاءا معه من الأبيض وتوجها الى سنكات وارسل معهم الأمير عدة خطابات من الامام المهدى للهدندوه والامارار وخلفاء الختمية ، فقاما بتوزيع الخطابات لاصحابهـا وخاصـة خلفاء الختمية ومنهم الخليفة محمد الصافى وهو من كبـار خلفاء الطريقـة الختمية بسواكن ويرأس قبيلة الاشراف وكان عضـوا فى المجلس الذى قـرر طرد الأمير عثمان من سواكن والخليفة عبد الله حمد نور وهو من خلفاء الختمية المهمين وكان قد اشترك فى المجلس الذى طرد الأمير من سواكن فاستلم الخليفتان خطابيهما وذهبا بهما الى السيد محمد سر الختم بن السيد محمد عثمان الختم واطلعاه على خطابى الامام المهدى فما كان منه الا أن أمرهما بتسليم الخطابات للحكومة واعلامها بتبرئتهما منها. ففعلا ما أمرهما به .

وقصد الأمير عثمان من كوكريب أركويت وفى اثناء طريقه كان يوزع الخطابات ويدعو الناس للبيعة وقابل فى طريقه الشيخ الحـاج حسن محمد بشارة وهو من الزعماء الدينيين فبايع الأمير وأعلن الجهاد .

وتحرك الأمير من قباب قاصدا أهله فى أركويت ولكن فى هـذه الفترة كان خبرة قد وصل الحكومة فقام الحكمدار علاء الدين باشـا

صديق بارسال البرقية التالية الى مصر فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ (علم من التلغراف الوارد من محافظة سواكن رقم ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ بانه بلغه مؤكد أن شخصين احدهما يسمى (عثمان هدا) من عائلة دقنه بسواكن والآخر جعلى لم يعلم اسمه حضروا من طرف المتمهدى وقاموا من بربر وتوجهوا لعربان البشارية وحرضوهم على التمرد ضد الحكومة ثم حضروا لعربان الامارار وحرضوهم ايضا وان احدهما توجه لعيتباى وقيل انه بها للان والآخر توجه أول أمس من كوكريب قاصدا سنكات لتهييج عربانها ولذلك صار قيام المحافظ ومعه محمود على شيخ الفاضلاب لأعمال الطريقة المؤدية للقبض على عثمان المذكور) .

تيجة للتلغرافات التى تبودلت بين سواكن والخرطوم والقاهرة تحركت قوة من سواكن بناء على تعليمات المحافظ محمد توفيق بك فيها محمد أحمد قواص (محمد بك أحمد فيما بعد) ومحمود على شيخ الفاضلاب ، لالقاء القبض على الأمير عثمان دقنه وفى حالة عدم العثور عليه تأخذ القوة ابن عمه أحمد دقنه رهينة . ووصلت القوة الى أركويت قبل وصول الأمير اليها وتأخر الأمير بعض الوقت فى الطريق لتمسك الأهالى به لتفادى الاصطدام بجنود محمد توفيق وعندما علم أحمد دقنه بخبر الحملة جمع الأهالى واستعد لملاقاة حملة محمد توفيق ولكن الحملة عندما رأت صدق عزيمة الأهالى بقيادة أحمد دقنه خشيت على نفسها الهلاك فقضت الليل فى خوف شديد ولما أصبح الصبح عادت ادراجها الى سنكات .

وصل الأمير الى أهله فى اركويت فاستقبل أحسن استقبال وبايعه كل الحضور وخاصة الدقناب ومنهم ابناء عمه أحمد دقنه ومحمد

دقنه ومحمد الأمين واخوانه ابناء الشيخ يس والقاضى عبد القادر قاضى سواكن واخوه محمد النور .

وفى يوم ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ وصلت خطابات من توفيق بك محافظ سواكن الى الشيخ الطاهر المجذوب وأحمد دقنه طلب منهما الحضور لسنكات للتباحث فى كيفية القبض على الأمير فما كان منهما الا أن سلما الخطابات للامير .

الفصل السابع

(البيعة الكبرى)

حوالى ٢٤ رمضان سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق يوم ٢٩/٧/١٨٨٣م) وصل الأمير عثمان دقنه الى (قباب) وهى مركز الخلاوى الدينية للشيخ الطاهر المجذوب وتقع قرب آركويت ــ فوجد شيخه الشيخ الطاهر المجذوب فى قباب بـ مجده وحوله اعيان ومشايخ قبائل الهدندوه امثال الشرعاب والميشاب والتركى والايبشر البشارياب والدقناب والشادلياب والمجاذيب والرضون ، وكان من مجاوريهم بجبال « أوكاك » « سنكات » الحامداب والقرعيب والعميراب الخ . وامام هذا الحشد الحافل سلم الأمير عثمان دقنه خطاب الامام المهدى الذى بموجبه تولى عثمان دقنه امارة شرق السودان .

فرحب الشيخ الطاهر المجذوب بالأمير ترحيبا حارا وقبل كتاب الامام المهدى ووضعه على عينه ورأسه وقام يخطب فى مجلسه قائلا (هذا هو امير شرق السودان تلميذى وحبيبى الأمير عثمان دقنه ، وقد وافقت على امارته وها أنا ابايعه امامكم على السمع والطاعة والتأييد والنصر) ثم بايع الشيخ الطاهر المجذوب الأمير عثمان دقنه وتلاه سائر الزعماء . ولقد كان الشيخ الطاهر المجذوب محبوبا لدى الجميع لما عرف به من صلاح وتقوى وله اعداد هائلة من تلاميذه الذين هم رهن الاشارة فمنهم سكان البادية ومنهم سكان مدينة سواكن ويعتبر أعظم كسب للمهدية فى شرق السودان ولقد كان مصدقا بالمهدية فى أول ايامها واشتهر بانه يقول عن الامام المهدى (انه المهدى لا شك

فيه) ثم اصلح الأمير عثمان بين الزعماء المتخاصمين لذ كان القتال ناشبا بين الاشراف والكميلاب ، وبين النابتات وبيت معلا ، وبين نابتاب عمر وابراهيم وبين منسع وبما ريام ، وبين الشبوديناب والبشاريين وبين بهتاحقوس بن منقشتنا وتيجراى فى جهة سقينينى وبين ودمار ايام وبرم بلاس كافل وبين نابتاب آكد وبيت سقدى ، فاستطاع أن يحل هذه المنازعات وقرب بالمصاهرة بين المتباعدين فائتلفت قلوبهم ومحيت الضغائن والثارات التى كانت بينهم فبايعوه نيابة عن قبائلهم على السمع والطاعة واخراج الزكاه وقتال أعداء الله حتى تكون كلمة الله هى العليا ومن أهم المبايعين الشيخ عبد الرحمن المجذوب وابنه محمد المجذوب وابناء عمه الحاج عمر قمر الدين المجذوب والأمير مدنى المجذوب ومحمد الأمين واخوانه وابناء الشيخ يس والقاضى عبد القادر حسين قاضى سواكن واخيه الخطيب محمد نور والمفتى صديق من قبيلة الحسناب . ولما انتهت البيعة أرسل الشيخ الطاهر المجذوب الرسل فى طلب الشبان المجاهدين للحضور سريعا فكان التهافت على خلع نير الاستعمار عظيما — فعين الأمير عثمان الأمراء على المدن مثل الأمير الخضر بن على الحسنابى العمرى على توكر والأمير عبد الله حامد المحمود ابى على سواحل البحر الأحمر من جهة (التيب) وترنكتات ، وارسل خطاباته الى نظار القبائل والعمد كي يحضروا للبيعة ولم تمر فترة طويلة حتى وفد على الأمير المجاهدون من كل القبائل فى شرق السودان .

● ● ●

الفصل الثامن

الوقائع الأولى

زحف الأمير الى أوكاك (سنكات)

بعد ان اجتمع لدى الأمير عدد كبير من الانصار ولما شعر بان الحكومة قد علمت بأمره وتحاول القبض عليه قرر الزحف على سنكات. فوجه الشيخ الطاهر المجذوب ومن معه من الانصار بانتظاره فى موقع يسمى « توا » وهو بجوار سنكات والتقى الجمع فى « توا » يوم ٢٩/٨/١٨٨٣ وكان هذا اليوم مصادفا أول يوم لعيد الفطر المبارك فصلى بهم الأمير صلاة العيد . زحف الأمير بقواته الى سنكات مارا بجبل «الكوم الأسود» ثم « اللايميب » وتجاوزه الى جبل المقابر حيث القلعة الحصينة التى بدأ فى بنائها محمد بك توفيق أما أهل سنكات فقد صلوا أيضا صلاة العيد خلف السيد محمد عثمان تاج السر ولما سمعوا تهليل وتكبير الانصار رجعوا الى بيوتهم .

نزل الانصار على مسافة قصيرة من جنود محمد توفيق بك . وكان كل سكان سنكات من البجة والسواكنية قد بايعوا الأمير ما عدا خلفاء الختمية الذين حملوا منشور الامام المهدى الى توفيق بك .

عندما شعر اعيان سنكات بخطورة الموقف قرروا التدخل للصلح بين القائدين فتدخل الخليفة الصافى أبو بكر والخليفة عبد الله محمد نور ومحمد الأمين بك ترك ومحمود بك على الفاضلابى والسيد أحمد البدوى والشيخ محمد أحمد حيدراب .

قال محمد بك توفيق لسفراء الصلح بانه ارسل برقيه للخديوى بمطالب الأمير عثمان دقنه واتوقع أن يصلني الرد حتى الظهر فعرضوا الرد على الأمير فقال بأنه لايمانع على شرط أن يوقف توفيق بك المتاريس والمزاغيل فى القلعة وحولها فلما اخبر بذلك رفض وطلب الأمير من سفراء الصلح وأهل سنكات أن يحضروا حالا لاخذ البيعة ولم يتخلف منهم الا السيد محمد عثمان تاج السر والسيد محمد الحسينى صديق والخليفة أحمد آدم .

وفى هذا الاثناء كان توفيق بك وجنوده يحصنون فى ثكناتهم واستحكاماتهم ولما شعر الأمير بمراوغة الترك ومحاولة للخلفاء اعطائهم أكبر وقت ممكن ليقووا تحصيناتهم قرر الهجوم .

قاد الأمير عثمان الهجوم أول الأمر وخلفه لواء الامين فقيرى وصمم على تيته من الشرعاب والطيب فقيرى ثم لواء اسماعيل الأمين أحمد من الترك موسى ربشه وموسى أحمد حمد فلواء فكى على حامد ثم لواء من انضم اليهم ممن حول سنكات . أمر الأمير الانصار بكسر باب الحصن واقتحم الأنصار الحصن وقتلوا كلمن كان بالحصن ووقف باقى الانصار بالخارج لأنهم لم يجدوا مكانا بالداخل فكان بعضهم يحاول حفر تجويفات فى الجدار لضرب الترك والبعض يحاول التسور للسقف ، ووقف جنود توفيق من فوق الحصن يرمون الانصار بالرصاص قبل أن يصلوا اليهم واخذ بعض الانصار يرجمونهم بالطوب والحجارة .

بدأ الحصن يظلم من كثرة من فيه من البشر ومن دخان البارود فما كان من الجنود الا أن تراجعوا للحجرات الخلفية واقفلوا أبوابها وبدأوا يطلقون النار من فتحات فى الجدران . استطاع الأمير عثمان أن يظفر بتوفيق بك فى حجرته فضربه بالسيف فسقط جريحا وكان

مع توفيق ياوره أحمد الطيب الشايقى فضرب الأمير بالسيف على رأسه ومصمصة وطعنه فى ظهره فسقط الأمير وحمله الانصار خارج الحصن.
وكان الانصار فى أول هجومهم يتعرضون لوابل من الرصاص مما جعلهم يتوقفون لحظة حتى انبرى محمد دقنه ابن عم الأمير وتقدم الصفوف وكان قد طلب من الأمير أن يسمح له بتقدم الانصار حتى يقتدوا به ، فلما تقدمهم واقتحم الحصن تدافع الانصار من خلفه فصار محمد دقنه يحصد الجند بسيفه وكلما اعترضه أحد الجنود ببندقيته ضربها بسيفه فجعلها نصفين ثم قتل حاملها وظل يضرب بالسيف عن يمينه ويطعن بالخنجر عن شماله حتى سقط شهيدا وانتهت الواقعة وانسحب الانصار الى أركويت وحمل الأمير على ظهر جمل واستشهد فى الواقعة من الانصار ستين انصاريا وقتل من الجنود سبعة وخمسين ومن الشهداء المشهورين من قبيلة الدقناب . فكى محمد دقنه وأحمد دقنه وابنه حامد أحمد دقنه وطاهر باوانين وحامد خادم القاضى عبد القادر حسين .

ومن الشرعاب ــ الطيب فقيرى والأمين على نصراى وعيسى على وموسى محمد ومحمد آدم .

ومن الميشاب ــ موسى على أحمد وموسى ربشة وموسى أحمدحمد.
ومن الحامداب ــ البطل أحمد عيسى موسى وقد أصيب باربعة رصاصات فحملة عميد القبيلة الشيخ ابراهيم أحمد الى مقرة الأخير .

وبعد انتهاء الواقعة وصل الى أرض المعركة ثمانمائة من البشلرياب وخمسمائة من الحامداب مددا للامير وتفرقوا لما وجدوا المعركة قد انتهت أما محمود على شيخ الفاضلاب فجاء ومعه أربعمائة من الامارار وبقى محمود على مع قواته بجانب توفيق بك .

واقعة قباب (١١/٩/١٨٨٣) كانت أخبـــار توفيق بك وتحركات جنــوده تصـــل أول بأول بينما كان الامير يتطيب فى جبـــل « رقاقيت » بجهـــة خـــور « اندريب » جوار أركويت .

كان لوصول محمود بك على شيخ الفاضلاب ورجاله الأربعمائة أثر كبير فى تقوية موقف توفيق اذ ان محمود على من كبار خلفاء الختمية الذين أظهروا عداءهم للثورة المهدية وحاربوها كما أن للشيخ محمود مصالح شخصية تضر بها الثورة المهدية فقد كان يتقاضى مرتبا عاليـا فى ذلك الوقت وهو خمسة وعشرون جنيها شهريا كمـا كان متعهدا لاحضار الجمال وحاميا للطريق التجارى بين بربر وسواكن فى المنطقة بين سنكات وسواكن . كل هذه الأسباب جعلت محمود على متحمسا ضد الثورة المهدية فى شرق الســودان والقبض على الأمير والشيخ الطاهر المجذوب وكان الاعتقاد السائد لديه وتوفيق بك أن الانصـــار قد تخلوا عن الأمير بعد واقعة سنكات فقرروا الهجوم على الأمير فى أركويت .

تحركت من سنكات حملة من مائتى جندى ومدفعين بقيادة محمود بك على قاصدة أركويت . فسمع الأمير بخبر هذه الحملة فعين محمد موسى دقنه قائدا للانصار وامره بأن يعسكر فى خور قباب الذى يقع قرب أركويت . ولمـا وصل محمود على وجنوده الى قباب عسكروا فى الخور وبنوا زريبة حولهم وجعلوا لهـا بابين ووضـــعوا مدفعـا على كل باب وقضوا ليلتهم فى هذه الزريبة وعيونهم ساهرة لما رأوه من تجمعات الانصار وهى عكس توقعـاتهم . ولمـا أصبح الصـباح أطلق الجنود طلقات مدافعهم صوب مسجد الانصار بقباب فاصـــابت الشظايا عشرة من التـــلاميذ وثلاثة من مدرســيهم هم على منصـــور « من الترك » ومحمد طلاب « من الجميلاب » وســيدنا أحمد محمد « من الشرعاب » .

استاء الانصار من أعمال الجنود البشعة التى اضاعت أرواح التلاميذ الأبرياء الصغار فكبروا وهجموا على الزريبة من جهاتها الأربعة فاصطف الجنود فى الجهتين الخاليتين من المدافع وانهمر الرصاص كالمطر على الأنصار كما عاقت الزريبة المحكمة اقتحام الأنصار ولم يتمكن الأنصار من دخولها وأصيب قائدهم محمد موسى بجرح بليغ فى محاولة الدخول وتمكن ثلاثة من الأنصار دخول الزريبة واستشهدوا داخلها . منهم طه شهدا الذى حضر مع الأمير من قبل الامام المهدى ــ بلغ عدد شهداء الانصار سبعة وعشرون شهيدا وقتل من جنود محمود على ابنه وستة جنود وواحد صاغ وخبير الحملة على نفر محمد على وانسحبت الحملة بعد الواقعة وانضمت الى حامية سنكات فى هذا الأثناء وصل سليمان باشا نيازى سنكات من الخرطوم ليكون محافظا عاما لشرق السودان بعد اختلافه مع هكس وبعد واقعة قباب حضر الضابط الانجليزى مونكريف الذى كان قنصلا لانجلترا بجدة لسنكات لتهنئة محمد بك توفيق على انتصاره على الأمير عثمان دقنه ثم رجع لمقر عمله الجديد بسواكن .

أرسل الأمير عثمان خطاب الأمام المهدى الى قبيلة الكميلاب التى كانت قرب مدينة طوكر فرحبوا بالخطاب وبايعوا المهدية وكان معهم فى ذلك الوقت جبارة اغا الشايقى مع جماعة من العساكر الباشوزق حضروا لشراء جمال لحملة هكس فما كان من الكميلاب وأميرهم الحاج بن حسن أبو زينب الا أن دعوا العساكر للتسليم ومبايعة المهدية فرفضوا فطاردهم الكميلاب حتى أوقعوا بهم فى أرض السمر ايدواب وقتلوهم جميعا .

كما أصدر الأمير تعليماته للانصار بقطع اسلاك التلفون فقطعوها بين سواكن وكسلا وقتلوا جميع العساكر الذين كانوا بالمحطات الا من ركن منهم الى الفرار لسواكن أو كسلا .

ووصل الأمير وفد من قبائل طوكر للمبايعة منهم الأمير الخضر بن علي شيخ قبيلة الحسناب التي تسكن بجوار طوكر فعينه الأمير أميرا على طوكر وأمرهم الأمير عثمان بمحاصرة طوكر كما بايعه الشيخ موسى فقيه شيخ الارتيقة وحمله الشيخ الطاهر المجذوب خطابا لاتباعه بطوكر اذ أن معظم الارتيقة من اتباع الشيخ الطاهر المجذوب .

واقعة ابنت ٢٧ — ١٠ — ١٨٨٣

عين الأمير عثمان الأمير علي طلاب محمد قائدا لمحاصرة الطريق الى سنكات فسار الأمير علي طلاب بقواته لقطع الطريق بين سنكات وسواكن وانقسم بفرقته الى قسمين كل قسم في طريق وكانت فرقته تتكون من قبيلة القرعيب . وبينما كان يعسكر في خور يسمى (ابنت) في الطريق بين سواكن وسنكات حضر اليه رجل من القرعيب يدعى همد ادارفور واخبره بأن هنالك قوة من الاتراك تحركت من سواكن وستمر بخور (ابنت) فامر الأمير علي طلاب رجاله بالاستعداد وكانوا حوالى مائة وخمسين رجلا مسلحين بالحراب والسيوف فكمنوا بين الصخور والأشجار .

وصلت القوة التركية وكانت تتكون من مائة وستة وخمسين رجلا بقيادة البكباشي محمد بك خليل والملازم حسن لطفي ولما رأى الجنود الانصار أطلقوا عليهم النار فالتحم بهم الانصار وقتلوهم جميعا ما عدا سبعة من الجنود استطاعوا الفرار وايصال نبأ الهزيمة الى السلطات بسواكن . غنم الانصار في هذه الواقعة مائة وخمسين بندقية وثلاثة ألف طلقة ولم يأخذ الانصار جمال الحملة التي كانت مستأجرة من قبيلة السمرار وارجعت لهم جميعا . ارسل الانصار خبر الانتصار الى الأمير عثمان وطلبوا منه أن يرسل أمين بيت المال ليقوم باستلام الغنائم .

وصل خبر ابادة نجدة سنكات الى سماع محمد بك توفيق وحزن حزناً شديداً ولم يكن سليمان باشا نيازى قد فارق سنكات بعد وجمع له محمد بك توفيق خمسة وعشرين من الجنود المتطوعين من ضمنهم محمد أحمد قواص (محمد بك أحمد فيما بعد) وسافروا به لسواكن عن طريق أرض الامارار (هدساناً) وهكذا اقتضت الظروف محمد بك أحمد ليلقى القبض على الأمير عثمان دقنه فيما بعد .

ذاعت ابادة نجدة اغاثة محمد بك توفيق فى ابنت وانتشرت فى البوادى والقفار وتقلها الركبان فى كل أنحاء السودان وخارجه وتولى الذين نجوا من معركة ابنت نشر الهزيمة وارتفعت الروح المعنوية للانصار والتفت القبائل حول الأمير مبايعة فتكاثر انصاره .

واقعة التيب الأولى ٥ ــ ١١ ــ ١٨٨٣ م

بعد تعيين الأمير الخضر بن على الحسنابى أميرا على طوكر سافر لمحاصرتها ووجد كل ترحاب من القبائل التى حول طوكر خاصة قبيلة الارتيقة وشيخهم موسى بن الفقية وقد أرسل الشيخ الطاهر المجذوب لهم خطاباً اذ أن كل الارتيقة يتبعون لطائفة المجاذيب ــ كما انضم للأمير الخضر القاضى صالح قاضى طوكر بعد أن هجر وظيفته .

سمعت حامية طوكر بخبر الأمير الخضر وكان مامورها اذ ذاك متغيباً فماكان من رجال الحامية الاأن حصنوا المدينة وحفرواخندقا حولهاوكانوا حوالى أربعة بلوكات من العساكر عليهم ضابط برتبة صاغ ولما ناداهم الأمير خضر للتسليم رفضوا وارسلوا طالبين النجدة من سواكن .

قسم الأمير جيشه الى قسمين قسم تحت امارته لحصار المدينة وقسم آخر مكون من مائة وخمسين رجلا بقيادة الأمير عبد الله بن حامد لقطع الطريق بين طوكر وترنكتات حتى لاتصل النجدات لطوكر عن طريق البحر .

استاء محمود طـاهر باشا من هزيمـة (ابنت) وبدأ يجمع الجنود والذخائر لانقاذ حامية سنكات وبينما هو يستعد وصلته رسالة من قائد حامية طوكر يطلب فيها الاغاثة العاجلة فقرر السفر لطوكر أولا وبعـد فك الحصار عنها يعود ليفك الحصار عن سنكات . اجتمع لدى محمود باشا طاهر حوالى ٥٥٠ جنديا وواحـد مدفع كما انضم اليه مونكريف القنصل الانجليزى وأربعة من اليونانيين . ابحـر محمود باشـا طاهر وجنوده من سـواكن على ظهـر البـاخرتين « طور » و « جعفرية » ووصلوا ميناء ترنكتات الميناء البحرى لطوكر ، ومنها تحركوا نحو آبار التيب ، وعند آبار التيب هجم عليهم الانصار بقيادة الأمير عبد الله بن حامد أمير السـاحل فاختلطوا بهم واعملوا فيهم السلاح الأبيض فقتل من الجنود ١٤٨ وهرب الباقون وعلى رأسهم محمود باشا طاهر كما قتل القنصل الانجليزى مونـكريف واليونانيين الأربعـة وحسن بك حلمى وضابط بحرية انجليزى كان مراسلا لجريدة التيمس واستشهد سـبعة وعشرون انصاريا .

عاد محمود طاهر باشا بفلوله الى سواكن فحال وصوله أتتـه التعليمات بعزله من منصبه وتولية سليمان باشا نيازى الذى حال توليه عرض على الأمير عثمان دقنه (ناظر نظار) قبائل شرق السودان ـ كمـا عرض على الشيخ الطاهر المجذوب عموم الزعامة الدينيـة بالشرق فاعتـذر كلاهما باباء وشمم .

بعد واقعـة التيب تملك الرعب محمود باشا طـاهر فبقى فى ظهـر الباخرة (جعفرية) طيلة اقامته بسواكن اذ أنه كان قد استنفر الشعور العام للاهالى ضده وهو أول من استعمل المساجد فى سواكن مخازن لتموين جنوده بل استعمل جامع المجاذيب اصطبلا للخيول كما انتزع أملاك المجاذيب والدقتاب والشادلياب والهدندوه وفى نفس اليوم الذى حدثت فيه واقعة التيب كان ابراهيم بك عبد الله مأمور طوكر ومعـه

عشرين جنديا فى منطقة خور (اللنقيب) لجمع الجزية فوجد قبيلة الكميلاب هناك فطلب من عميدها السيد حاج حسن أبو زينب أن يبيعه الجمال الموجودة عنده فاعتذر ولما جن الليل هجم عليهم فاستولى على اسلحتهم وقال لهم بايعونى واعترفوا بالمهدية فرفضوا فابيدوا عن اخرهم ورحلت القبيلة برجالها للمساعدة فى حصار طوكر وارسلوا الخيالة التى عندهم بقيادة محمد عمر تامساى وأبو على شثيقه بن بلال فانضموا الى خياله سيد روجان بسواحل التيب .

واقعة تأماى الأولى ٢ ديسمبر ١٨٨٣

استاء سليمان باشا نيازى من اندحار جيش سلفه محمود باشا طاهر وسافر الى ارتريا لجمع الحاميات الموجودة فى المدن ومحطات الحدود مثل مصوع وكرن واميديب وهرر وبربره وصار يبعث بها الى سواكن أول بأول ، اذ أنه بعد هزيمة التيب لم يبق بسواكن غير فلول جيش محمود باشا طاهر كما اذداد تعداد جيش الأمير عثمان دقنه حول سواكن التى شدد عليها الحصار .

أرسل الأمير عثمان أحد قادة الألوية المدعو ابو فاطمه باتار الشرعابى كى يحاصر سواكن برجاله ويمنع عنها أى شىء من البادية حتى أنه منعهم من شرب ماء (الشاطه) وهى مكان الماء بجوار سواكن) فكانوا يشربون من ماء « الكنداسة » « التقطير » وخرج اليه من سواكن أحد مخبريه وذكر له أن لدى الحكومة فى حارة (الشيل) وهى احدى أحياء سواكن) ما لايقل عن خمسمائة من الضأن موضوعة فى زرائب ويمكن للانصار الاستيلاء عليها اذ ليس عليها خفراء الا بعض الاهالى فهجم عليها الأمير أبو فاطمة برجالة واستاقها جميعا الى (تسلها) حيث القيادة العامة ولم يخرج أحد لاستردادها لما عوفى الأمير عثمان دقنه من جراحه جمع حوالى ثلاثة آلف من

الأنصار ونزل بهم في تاماى (التمنيب) واستطاع الأمير أن يحكم الحصار على سواكن من موقعه هذا فقطع الطريق بينها وبين سنكات وكسلا . قام الأمير عثمان بتعيين الأمير مصطفى على هدل وهومن الارتيقة أميرا على كسلا وارسل معه بعضا من المساعدين والانصار فقام الأخير بحصار كسلا وضيق عليها الخناق وخرج اليه أفراد الحامية مع بعض من قبائل الشكرية الذين جاؤا لحمايتها اذ انهم من طائفة الختمية واستطاع الأمير مصطفى هدل أن يوقع بهم في عدة مواقع.

علمت السلطات في سواكن بخبر وجود الأمير عثمان في آبار تاماى فما كان من سليمان باشا نيازى الا أن جهز قوة من الجنود الذين جمعهم من الحاميات الخارجية وارسلهم بقيادة السنجك كاظم للقبض على الأمير والشيخ الطاهر المجذوب واحضارهما أحياء لسواكن . خرج السنجك كاظم ومعه ٧٠٠ من العساكر السود والباشبوزق وعشرون فارسا ومدفع واحد وكانت مسيرتهم من سواكن ليلا متخفين عن الناس حتى لا يعلم بهم الأمير عثمان ولما وصلت حملة كاظم افندى ابار التيب بدأت تطلق النار على الانصار وكان قائدهم واثقا من النصر يرقب جنوده بكل فخر وعندما سمع الانصار صوت الرصاص هجموا هجمة واحدة على الجنود واعملوا فيهم قتلا وطعنا فقتلوا كل من لحقوه . أما الخيالة فانهم هربوا بجلودهم نحو سواكن وقتل السنجك كاظم شر قتلة كما قتل الضابط عبد الله زيدان وابنة زيدان كما قتل الصاغ محمد سعيد ابن المزين واستشهد من الانصار ثمانين . قام الأمير عثمان في أوائل ديسمبر ١٨٨٣ بارسال الفقيه أحمد القلهيابى وأمير البشاريين الطاهر قيلاى على رأس قوة من الانصار للنخيلة وكانت بها قوة من الجنود على رأسهم سنجك والتقى الانصار بهم قرب النخيلة فقتلوا منهم مائة واربعة وعشرين وهرب السنجك مع البقية من جيشه لبربر وانضم الطاهر قيلاى بانصاره للامير محمد الخير لمحاصرة بربر أما الفقيه أحمد القلهيابى فانه عاد لمعسكر الأمير عثمان .

استطاع الأمير عثمان دقنه خلال أربعة أشهر من انضمامه للثورة هى الفترة من أغسطس ١٨٨٣ الى واقعــة تاماى الأولى فى ديسمبر سـنة ١٨٨٣ أن يحقق جزءا كبيرا من مهمته فى شرق السودان . فلقــد قام بابادة كل الجيوش التركية الموجودة بشرق السودان ما عدا المحصورين منها فى سواكن وسنكات وطوكر كما قام بقفل الطريق بين بربر وسواكن واستطاع حصار سنكات وطوكر بصورة جعلتهما وشيكتى السقوط كما ضرب الحصار حول سواكن وأصبح موقفهما ضـعيفا ومهددا ولمــا وصلت للمندوب البريطانى فى مصر انبــاء ابادة حملة كاظم باشــا أعلن المسئولين فى انجلترا عن خوفه على النفوذ التركى فى شرق الســودان وأكد لهم أن النفوذ التركى لا يتعدى مدينــة ســواكن والتى أصبحت كذلك مهددة بالسقوط . وبينما يتضاءل النفوذ التركى فى شرق السودان تزداد قوة الأمير عثمان وهاجرت اليه قبائل البجة من كل صوب وحدب ما عدا الذين فرضت عليهم الحكومة للرقابه فى سواكن .

● ● ●

الفصل التاسع

التدخل البريطاني السافر

واقعة التيب الثانية ١٨٨٤/٢/٤ م

اهتمت بريطانيا ومصر باخبار انتصارات الأمير عثمان دقنه فى شرق السودان واشفقنا على نفوذهما ودارت المحادثات بينهما واستقر الرأى على ارسال حملة لتدعيم الموقف فى شرق السودان وانقاذ حاميتى سنكات وطوكر .

كان الرأى السائد فى مصر أن يتولى قيادة الحملة الزبير باشا رحمه واستعد لذلك وقام بجمع بعض المرتزقة من السود كما قامت الحكومة المصرية بجمع قوات الجندرمة والبوليس والبقية الباقية من جيش عرابى اذ كان هدف الانجليز التخلص من جيش عرابى . وفى اللحظات الأخيرة لسفر الحملة تخلف الزبير باشا عن قيادة الحملة لاعتراض جمعية محاربة الرق على سفره كما رفض أن يكون نائبا للقائد . ومن ثم تولى قيادة الجيش القائد الانجليزى فلنتين بيكر . وصحب بيكر جماعة من الضباط الانجليز والمصريين الذين تخرجوا من أرقى الكليات الحربية . وكان الكولونيل سرتوريوس رئيس أركان حربه للانجليز والأميرلاى عبد الرازق بك رئيس أركان حربه للمصريين ؛ وأعطى السلطة المدنية والعسكرية على جميع السودان الشرقى وعهد اليه فى استرجاع الأمن والسلام على أن يبدأ أولا بالوسائل السلمية. وكانت الحملة مجهزة أحسن تجهيز بالعتاد الحربى ، كما اصطحبت معها السيد محمد سر الختم المرغنى ليقوم بتحريض الأهالى ضد الثورة المهدية كما يقوم ببحث ومباركة الجيوش الذاهبة للقتال .

تنبت جريدة العروة الوثقى (١)

ورد تلغراف من سواكن فى ٢١ مارس سنة ١٨٨٤ مفاده أن الشيخ الدينى محمد سر الختم المرغنى ومعه السيد على المرغنى ذهبا فى ذات يوم الى المعسكر الانجليزى ليحضروا خضوع كثير من مشايخ القبائل الذين جنحوا الى السلم مع الانجليز وفى خبر آخر أن هذا الشيخ محمد سر الختم المرغنى صاحب فرقة انجليزية تسير الى بئر مندوب حيث يسكن الأمارار وينال أن احداها لم تزل مترددة فى قبول الطاعة وعدمها . هذا ما يعجب منه أن شيخا يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والارشاد ثم يقود جيشا انجليزيا لادلال ابناء ملته واخوان دينه وجنسه وهويعلم أنشرفه وسيادته ولولاهم لمانال الاكرام والاجلال بما اغدقت عليه النعمة وتوفرت لديه دواعى الترف والنعم وتمتع بكامل ذاته وشهواته وكيف يسوغ له ان يقود جيوش الانجليز قبل الوقوف على مقاصدهم وماذا يريدون من تذليل العرب واخضاعهم . هل يصح أن يأتى أمرا مثل هذا وهو يعلم ما يحظر الشرع وما يبيحه اعتبارا بعض الأوهام التى لا أساس لها) .

وكتب الينا من مصر والحجاز أن جماعة من العلماء فى القطرين حكموا بمروقة وقالوا أن هـذا من أعظم الزلات التى لم يرتكب نظيرها فى الاسلام على أنه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الارشاد الدينى وانما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين لما عرف عن ابيه ولم يتميز من العامة الأميين فى شىء وان كان هذا لايدفع العجب من فعله).

قام السيد محمد سر الختم بارسال خطاب الى الأمير عثمان دقنه يدعوه فيه الى التوقف عن مناهضة الحكومة وأرسل هذا الخطاب مع الخليفة محمد بادانين وهو من قرعيب الهدندوة فاستقبله انصار الأمير

---

(١) جريدة مصرية ذات انتشار واسع كان يتولى تحريرها الامام الأعظم محمد عبده .

وذبحوا ناقته وأكلوها ووجدوا عنده أربعين الفا من الجنيهات أرسله السيد محمد سر الختم ليشترى بها ولاء القبائل فسلمت للامير عثمان الذى رد على السيد محمد سر الختم بالخطاب التالى :

هذا هو رد الأمير عثمان على خطاب السيد محمد سر الختم المرغنى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه عثمان أبو بكر دقنه الى الجنـاب الأكرم السيد الجليل السيد محمد بن الأستاذ السيد محمد المرغنى وفقنـا الله واياه الى باب العلى فالذى نعلمكم به جناب الاكرام ــ أنه قد وصل جوابكم وفهم خطابكم الى آخر ما بداتم من النصح العام وذلك على حسب ما بدأ لكم لأن الدين معنـاه النصيحة فجزاكم الله خيرا .

وذكرتم انكم بهذا الطرف من طرف الدول لاسـكان هـذه الفتن الكائنة بهذه الجهة وكون اننا قمنا فيها باسباب ناس مفتنين فعلى حسب فهمكم حكيتم ما حكيتم فاعلموا يقينا أنه لمـا قمنا من الامام المهدى المنتظر عنده اليقين والذى لا شك فيه عاقل أنه لو اجتمعت الخلائق بأسرها شرقها وغربها لم يقدروا على مقاومة الأيدى التى معها يد الله تعالى فضلا مما ذكرت لنا من اتحاد الدول ولو كان عندنا أدنى شك فى عدم نصرة الدين لمـا أقدمنا على هذا الأمر ولـكن المطلوب من شيعكم الحضور لطرفنا لأجل المكالمة والمفاهمة فى الأمر الذى جئنا به فان كان قصدكم احياء سنة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فبعد الكشف على حالنا تكونوا انتم بالخيار وان كان قصدكم تبليغنا اتحاد الدول فقد فهمنا والسلام .

٧ ربيع أول سنة ١٣٠١ هـ الموافق ٦ يناير سنة ١٨٨٤ م
تأكد الجنرال بيكر من اصرار الأمير عثمان دقنه على الحرب وقبل ن يتحرك بيكر لانقاذ حامية سنكات وصله رسول من حاميـة طوكر يخبره بأن الحامية ستستلم فى خلال ثلاثة أيام اذا لم تصلها نجـدة . تحرك بيكر من سواكن بالبحر ونزل فى ميناء ترنكتات ومنها تحرك نحو آبار التيب .

ولم يكن أمير الساحل الأمير عبد الله حامد غافلا عن جيوش بيكر الجرارة فما كان منه بعد أن دعم جيشه بخياله الكميلاب الا أن احتل آبار التيت وأمر قوادة بحمل أكبرعدد مى الرايات وان يحملها اشجع لأنصار . فاذا رأى الأنصار أن نصفها او ما يزيد عليه سقط انسحبوا من ميدان المعركة واذا لم يسقط النصف ثبتوا فى مواقعهم .

تحرك الجنرال بيكر تتقـدمه الكشافة ومعـه ٣٠٠ من الفرسـان المصريين و ١٥٠ من الفرسان الاتراك و ٦٥٠ من جندرمه الاسـكندريه و ٥٠٠ من جندرمة القـاهرة و ١٠٠ من عسـاكر مصوع و ٤٢١ من عساكر سنهيت و ٤٢٩ من المشاه الاتراك و ٦٧٨ من عساكر الزبير باشا و ١٢٨ من السوارى المصريين و ٤٠ من البـوليس الأوربيين المتطـوعين ومجموعهم ٣٦٥٦ و ٦ مدافع فسار بهم بالانتظام العسكرى مسافة ثلاثة اميال ثم توقف فبنى طابية جعل فيها ٣٠٠ رجل لحفظ خط الرجعة .

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ عند الفجر واصل بيكر السير بباقى قواته تتقدمه الكشافة ولـما وصلت الكشافة الى مسافة قريبة من آبار التيب رأوا الانصـار وراوا كثرة ما يحملونه من رايات فاعتقـدوا بأن جيوش الأمير عثمان اكثر منهم فاطلقوا الرصاص على الانصار وانطلقوا راجعـين الى قواتهم الرئيسية ملؤهم الذعر والرعب وأبلغـوا قائدهم بأنهم شاهدوا اعدادا هائلة من الانصار وسرى الرعب فى جيش بيـكر

ولما صدرت لهم التعليمات بتشكيل مربع لم يحسنوا تشكيله كما تدربوا عليه واختلط رجال الضلع الخلفى بدواب الحملة واخترق الأنصار صفوفهم واختلطوا بهم فازدادوا هلعا وخوفا وأطلقوا الرصاص على بعضهم وبلغ بهم الرعب حدا جعلهم يلقون باسلحتهم ويركعون رافعين اياديهم الى السماء فانقض عليهم الانصار كالنسور يقتلونهم يمينا وشمالا حتى لم يبق من الجيش كله سوى ١٢٠٠ جندى هربوا الى ترنكيتات ومنها عاد بيكر الى سواكن وكان فى جملة قتلى الجيش ١١٢ ضابطا بينهم عبد الرازق بك و ١٠ ضباط أوربيين واما الأنصار فاستشهد منهم ٣٠٠ رجل بينهم محمود أخ الأمير الخضر وقد غنم الانصار ٦ مدافع و ٣٠٠٠ بندقية ونصف مليون طلقة وانضموا الى اخوانهم المحاصرين لطوكر فضيقوا عليها الخناق .

وقعت معركة التيب الثانية فى نفس الوقت الذى كان فيه الجنرال غردون يأخذ طريقة الى مصر لتنفيذ سياسة اخلاء الحاميات من السودان واثارت هزيمة بيكر الرأى العام الانجليزى لأن قائد القوة كان انجليزيا .

وأثير موضوع هزيمة بيكر فى البرلمان الانجليزى فى ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ وتحدث اللورد ــ دربى نيابة عن الحكومة فقال (يحتمل اننا عرفنا ــ بل لقد عرفنا فعلا ــ أن قوات الجنرال بيكر لم تكن حسنة جدا . ولكنى أجرؤ على التأكد بأن احدا لم يفترض مطلقا أن جمعا من الرجال يعتبرون انفسهم جيشا نظاميا يركنون الى الفرار من وجه قوة تسودها الهمجية وعدم النظام ويبلغ عددها نصف عددهم أو أقل بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة . انها لبدعه جديده فى عالم الحروب وماساة حقيقية يصعب علينا نحن المقيمين فى لندن أن نعتبر انفسنا مسئولين عنها .

ومهما يحاول الانجليز وغيرهم من الأوربيين الاعتذار عن تلك الهزائم النكراء التي اصابت الحكومة من أنصار الأمير عثمان فى اينت وتأماى والتيب فان الحقيقه التى لامراء فيها ان الخطة التى كان يتبعها الانصار من حروب العصابات وحروب الاستنزاف والتى كانت تعتمد على المباغته والهجوم المفاجيء ونصب الكمائن وعدم الاشتباك فى معركه فاصلة مع العدو ومناوشته اطول فترة من الزمن والهجوم من كل الجهات فى وقت واحد حتى لايتمكن العدو من التركيز على ناحية بعينها ويفلت الأمر من يد القواد وفوق ذلك كله شجاعة جنود الأمير الفائقة التى شهد بها الاعداء . ولكن الانجليز لم يعترفوا بالأسباب الحقيقية لهزيمتهم بل حاولوا ايجاد المبررات لهاولقد قال كرومر (وارانى المسئول الأول عن هذا الخطأ فلقد كنت استطيع منعه من الذهاب الى سواكن ولكنى عملت على عدم منعه رغم علمى بخطورة تصرفى ورغم انى فكرت مليا فى معارضة ارسال الحملة رسميا .

ومن قبل ذلك أعلن جلاد ستون رئيس الوزارة البريطانية آنذاك فى مجلس العموم ما يلى « لم تكن هناك ضرورة حربية لقيام بيكر بهذه الحملة فلم يندب لهذا العمل ولا كان ملزما عسكريا بمباشرتها ولعله كان مشبعا بالأمل فى نجاحها ولذلك ازعم أنه سار وهو يعتقد بأن الوسائل التى فى حوزته كافية لتحقيق غرضه . أن بيكر نفسه ذكر أنه يثق كل الثقة فى أن وسائله قد لاتكفى لانقاذ جميع الحاميات ولكنها كافية لانقاذ طوكر باعتبارها أكثر الجميع أهمية . وقد ابرق فى اثنين فبراير أى قبل كارثته بثلاثة أيام بأنه سيتحرك فى صباح اليوم التالى لانقاذ طوكر » .

سقوط سنكات ٨ — فبراير سنة ١٨٨٤

كانت سنكات فى أشد الخطر فبعد واقعة ابنت قام محمد بك توفيق بحفر خندق بمعاونة خلفاء الختمية كما حصن السور بأكياس الرمل

وبنى عليها أربعة ابراج على كل برج مدفع وزرب حول الخندق زريبة من شـجر السـيال . وعزز الأمير عثمان قوة المحـاصرين التى كانت بقيادة الأمير الفقيه على حامد الجميلابى حتى بلغوا سبعمائة وخمسين وكان قادة الحصار هم الشيخ آدم حلقـو عميد البشـارياب والشيخ ابراهيم أحمد دو عميد الحامداب والشيخ اسـماعيل أبو عاشة عميد القرعيب والشيخ محمد البدرى عميد العميراب .

وضيق جنود الأمير الحصـار على توفيق بك لدرجـة اصبحوا على مرمى البندقية وبدأ التناصة من جنود الأمير يطلقون النار على جنـود توفيق والآخرون يردون عليهم بطلقـات المدافع التى تطيش عن اهدافها وتروح هدرا .

ولمـا اشتد الحصار على سنكات خرج منها خلفاء الختمية واتباعهم للامير فقيه على حامد وأعلنوا البيعة ومكثوا فترة من الزمن ثم طلبوا منه أن يوصلهم للامير عثمان الذى كان محاصرا لسواكن ولكنهم بدلا من الذهاب للامير دخلوا سواكن ونكثوا البيعة وكان قد سبقهم السيد محمد عثمان المرغنى بالخروج من سـنكات الى سـواكن ومنهـا الى مصوع .

ضيق جنود الأمير الخناق على توفيق وجنوده وظلوا يطلقوا عليهم النيران نهارا وليلا وقطعوا عنهم المواد التموينية والرسائل ولمـا ضاق الحال على جنود توفيق من كثرة الضرب وانعدام القوت خرج توفيق بك ومعه فرقة من جنوده لتفريق المحاصرين ولكن جنود الأمير ردوهم على اعقـابهم وقتـلوا ما يزيد على العشرين منهم السنجك أحمـد آبن المزين فرجع توفيق بمن بقى معه الى الحصن .

لم يزل حال توفيق وجنوده يسـوء من يوم الى يوم والمحـاصرون يشددون عليهم الحصار حتى تفـذت اقواتهم فأكلوا الحمير والبغـال

والكلاب والقطط وأخيرا أوراق الهجليج والاراك . وفى آخر الأمر لم يتمكنوا منه لحيلولة الأنصار بينهم وبينه .

ولما بلغ الحال بجنود توفيق بك ما بلغ من الجوع جمع توفيق جنوده وأمرهم بالاستعداد للخروج وشق الطريق الى سواكن .

خرج توفيق بجنوده يوم الجمعة الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٤ بعد أن احرقوا مخازن البارود وسدوا أفواه المدافع وعددهم حوالى ٦٠٠ جندى وساروا فى تشكيل (مربع « قلعة ») وجعلوا النساء فى وسطهم . ولما وصلوا غابة جبيت الاشراف انقض عليهم جنود الأمير على حامد وافنوهم عن بكرة ابيهم ولم ينج منهم غير الشيخ أوهاج ال سوماى (القاضى) ونحو ثلاثين من النساء .

هكذا سقطت سنكات بعد صمود طويل واصرار من محمد بك توفيق على مواصلة الحرب ضد أصحاب الأرض فلقد كان متشبعا بالأفكار الاستعمارية ومؤمنا بها ومخلصا لها حتى أن سادته من المستعمرين أشادوا به وجعلوه شهيدا وقالوا فيه الشعر الرصين ولما زار الملك جورج الخامس ملك بريطانيا سنكات سنة ١٩١٢ غرس شجرة فى مكان الواقعة تخليدا لذكراه . أن المستعمر زيف كل القيم والمبادىء الانسانية لينصب من زبانيته أبطالا وشهداء بينما استبسل الجنود السودانيون فى الذود عن حياض وطنهم مسترخصين كل غال ونفيس وسكبوا دماءهم وارواحهم مهرا للحرية والاستقلال .

سقوط طوكر ٢٤ ـ فبراير سنة ١٨٨٤

استعمل الأمير خضر بن على المدافع التى غنمها من جنود بيكر فى ضرب طوكر وضيق عليها غاية الضيق وكانت طوكر فى موقف أحسن نسبيا من موقف حامية سنكات اذ أن لدى طوكر كمية كبيرة من القوت والمواد التموينية بالاضافة لوجود الآبار فى وسط المدينة ولما

نفذت الذخيرة من جنود الحامية وقطعت عنهم أخبار الحكومة أعلنوا التسليم .

بعد سقوط طوكر أرسل الأمير خضر نيابة عن الأمير عثمان دقنه خطابات الى رؤساء القبائل للحضور للمبايعة فحضر زعماء القبائل للأمير عثمان فى مقر قيادته فى (تسلها) .

نتائج انتصارات الأمير .

١ ـ الشيخ ضرار على ضرار (عميد قبائل العجيلاب والافلنده بجنوب طوكر)
٢ ـ الشيخ أكد موسى همد (عميد النابتاب)
٣ ـ الشيخ يعقوب حامد عوض (عميد عد عمر)
٤ ـ الشيخ محمود موسى (عميد بيت عوض)
٥ ـ الشيخ قليلاى محمد تكوش (عميد بيت بعشو)
٦ ـ الشيخ ادريس محمد ادريس (عميد بيت معلا)
٧ ـ الشيخ سليمان أبو نارو
٨ ـ الشيخ عمر محمد على (عميد عد شيخ)
٩ ـ الشيخ محمد نور نايب (عميد مصوع وناظر قبائل البلو)
١٠ ـ كنتيباى محمد شكر (ناظر قبائل الحباب)
١١ ـ رأس بلاس كافل (ناظر قبائل الحماسين) وسماه الأمير بعد اسلامه الناظر يوسف كامل

١٢ ـ الرأس بهتا حقوس حاكم مدرية سقنينى بلاد تجراى الشرقية وسماه الأمير (الرأس أحمد حقوس) الذى حافظ على بيعته واسلامه واستمر فى قتال الطليان نحو ستتين ثم أطمعوا جنوده بالمال فتفرقوا عنه والقى القبض عليه حتى مات فى الأسر .

نتائج انتصارات الأمير .

استطاع الأمير عثمان دقنه فى أقل من عام أن يقضى على جميع حاميات الحكومة التركيه وان يزيل نفوذها عن شرق السودان باستثناء مدينتى سنكات وطوكر وانحصر النفوذ الاستعمارى فى مدينه سواكن وانقطع اتصالها بباقى أجزاء السودان وانعزلت عنه انعزالا تاما وبقى اتصالها بالعالم الخارجى الذى كانت تربطها به السفن الاستعمارية واصبحت مهددة بين كل لحظه وأخرى بالسقوط وهكذا راحت هيبة الحكومة الخديوية والحكومة البريطانية فالاولى اصبحت لا تستطيع القيام بأى عمل حربى الآن . اما انجلترا فقد كانت مكتفية حتى ذلك الوقت بارسال القواد والضباط فلما رأت انخزال ضبطها قررت أن تعوض قوتها الحربية وتستعيد هيبتها التى أضاعها هكس وونجريف وبيكر .

اما هزيمة توفيق فكان لها أسوأ الأثر على الحكومتين الخديويه والبريطانية فثار الرأى العام البريطانى ثورة شديدة على موقف حكومته ووصفها بالضعف والعجز عن مواجهة الموقف فى شرق السودان خاصة والسودان عامة . وقام الأميرال هوايت بحراسة سواكن كما أمر كومر بريطانية بحراسة سواكن فى حالة هجوم الثوار عليها .

اضطرب الرأى العام البريطانى أيما اضطراب لما يدور فى السودان وانتهز ساسة الأحزاب الفرصة لمهاجمة الحكومة وتحالف انصار السلم على معارضتها فاجتمعوا فى دار المجلس البلدى للاتفاق على لوم الحكومة وتجريح سياستها ولم يكن هنالك جانب ولو ضئيل من الرأى العام مستعدا لحض الحكومة على اعادة فتح السودان بدون عمل حساب كبير لصعوباته وتقدير ما يترتب عليه من عواقب غير منظورة .

وقررت الحكومة أزاء ذلك أن ترسل قوات انجليزية لحماية كل من سواكن وطوكر بعد أن تأكد لها أن القوات الخديوية لن تستطيع ذلك ، ولقد أرسلت الحكومة الانجليزية تلك الحملة حماية لنفسها من السقوط أكثر من ارسالها حماية لسواكن وطوكر كما زعمت لأنها شعرت أنه لابد من عمل شيء مالتهدئة الرأى العام ومن ثم قررت أن ترسل حملة من الجنود الانجليز بقيادة الجنرال جراهام وهكذا اتخذت بريطانيا أسلوبا متناقضا لسياستها فى السودان فبينما كان الجنرال غردون يمني السكان بالأمن والحرية بأسم الحكومة الانجليزية كانت قوات جراهام فى شرق السودان تستفز المواطنين .

واقعة التيب الثالثة ٢٩ ــ فبراير سنة ١٨٨٤

أقرت الحكومة الانجليزية ارسال حملة من الجنود الانجليز بقيادة الجنرال جراهام وأمرت بارجاع بيكر لمصر كما تسلم مقاليد السلطة فى سواكن للاميرال هوايت . وصل جراهام لسواكن بجيش جرار يربو على العشرين ألف حملتهم اثنتان وأربعون سفينة بمالديهم من عتاد وأسلحة حربية وترك جزء منهم فى سواكن وتحرك بالباقى نحو ترنكيتات بحرا . ولما وصلها عرف أن طوكر قد تم الاستيلاء عليها . فلما أخطر حكومته جاءته التعليمات بالهجوم على جنود الأمير لتفريق شملهم وانقاذ جنود حامية طوكر . تحرك من ترنكتات بعد ظهر ٢٨ فبراير ونزل عند طابية بيكر المار ذكرها وكان الانصار قد علموا بقدومه فتجمعوا له فى التيب وبعث اليهم الأمير عثمان بابن اخته مدنى ابن على مددا حتى بلغ عددهم ستة ألف فأرسل اليهم جراهام كتابا ينصحهم فيه بالتسليم وترك الحرب ودفع الكتاب الى الأميرلاى هارفى بك الذى تحرك مع كوكبه من الفرسان رافعا رأيه بيضاء حتى قرب من التيب فغرز الراية فى الأرض وعاد الى الجيش ثم رجع فى اليوم الثانى ومعه شرذمه من الفرسان الى المكان الذى غرز فيه الراية فلم

يجد الراية ولا ردا على الكتاب وعرف تصميم الأنصار على الحرب فى سبيل تحرير أوطانهم .

قام جراهام بتنظيم جيشه مربعا وجعل دواب الحملة فى الوسط وسار تتقدمه طليعة من الفرسان وكان الأنصار قد بنوا طابية على مقربة من التيب جعلوا فيها مدافعهم وخرجوا للقاء العساكر فما سار الجيش ميلا من طابية بيكر حتى أطلوا عليه يرمونه بالرصاص ثم جعلوا يتقهقرون أمامه كلما تقدم نحوهم حتى وصلوا الى طابيتهم فدخلوها ولما وصل عساكر بيكر على مرمى مدافع الأنصار فتح عليهم الأنصار النار فكبدوهم خسائر فادحة ولكن العساكر الانجليز فتحت نيران مدافعها الحديثة التى استطاعت أن تصيب مدافع الأنصار وشن مشاه الأنصار يتقدمهم الخيالة هجوما كاسحا على المربع الانجليزى فانهمر الرصاص من المدافع الرشاشة ليصيب الأنصار وكان الواحد منهم اذا أصيب بالرصاص سد جرحه بيده وأعاد الكرة حتى يلقى الشهادة .

اشتد القتال فى هذه الواقعة التى التحمت فيها أسلحة الانجليز الفتاكة بشجاعة الجنود السودانيين وانفصل الجيشان عند المساء فاستشهد من الأنصار حوالى الف وخمسمائة وقتل من الانجليز ثلاثة ألف ولم يقع من الأنصار فى الأسرأى فرد لأنهم كانوا يحاربون الى آخر رمق حتى أن جريحهم كان وهو ملقى على الأرض يتخبط بدمائه حتى اذا مر به عسكرى يطعنه بحربة أو سيف . ومن بين الشهداء الأمير عبد الله حامد أمير الساحل والأمير مدنى دقنة والطاهر بن عمر المجذوب الذى طلب من اصحابه أن يحملوه الى داخل أرض المعركة لما جرح خارجها حتى يتمكن من قتل أحد العساكر واستشهد الأمير موسى قويلاى (الشرعابى) وأمير الخيالة الفارس سيد روجان (من البشارياب) وعمر تامساى .

وقد اشترك فى هذه الواقعة من الأعداء الجنرال بيكر الذى كان على ظهر جواده فاصابته شظية من القنابل التى كانت تطلق من مدافع الأنصار فجرحته جرحا بليغا .

وتقدم جراهام فى اليوم التالى الى طوكرولم يكن بها أى من الأنصار اللذين كمنوا له فى غابة طوكر ولم يتوقعوا فراره بتلك الصورة بعد أن أرجع معه السبعمائة مصرى من المدنيين ومائة جندى من جنود حامية طوكر .

واقعة تاماى الثانية ١٣ ـ مارس سنة ١٨٨٤

رجع جراهام بجنوده الى سواكن عقب واقعة التيب الثالثة وخيل اليه أنه قد أصاب نصرا فى واقعة التيب الثالثة وأنه قد لقن الأمير درسا فقام بارسال انذارات للاميروزعماء القبائل يتهددهم فيها وينصحهم بالتسليم فما كان من الأمير عثمان الا أن رد عليه قائلا دع عنك النصح واستعد للقتال الذى يكون فيه هلاكك أن شاء الله وختم الأمير خطابه هذا بختمه وأختام قواده وأرسله الى جراهام الذى اقتنع بتصميم الأمير وجنوده على الحرب .

جمع جراهام عشرين ألف من قواته وتحرك من سواكن فى ١١مارس ١٨٨٤ قاصدا تاماى وبات ليلته الأولى فى زريبة من بناء بيكر وفى الصباح تحرك نحو تاماى وبات ليلته الثانية قريبا من تاماى فى زريبة أيضا وطيلة تلك الليلة ظل جنود الأمير يمطرونهم برصاص الهجمات الفردية الانتحارية فقتلوا من جنود جراهام عددا كبيرا ولكن الذى كان أقسى على الجنود هو أنهم لم يستطيعوا أن يناموا فى تلك الليلة . كانت خطته هذه نتيجة لما حدث لجنوده فى واقعة التيب الثالثة فلقد ادرك الأمير أن الهجوم المكشوف قد عرض جنوده لنيران المدافع الرشاشة التى استعملت ضده لأول مرة . وكان استعمالها محرما

ى الحرب بين الدول الأوربية ولذلك فانه اعتمد هذه المرة على حرب العصابات والقناصة بدلا من الدخول مع العدو فى معركة سافرة .
وفى صبيحة يوم ١٢ مارس ١٨٨٤ قسم جراهام جيشه الى قسمين كون كل قسم منه مربعا حسب التكتيك العسكرى وزحفوا على الأنصار واستطاع جنود الأمير أن ينصبوا كمينا للمربع الأول فاعملوا ى جنود الانجليز السيوف والرماح فقتلوا منهم عددا كبيرا وهزموهم شر هزيمة وكادوا أن يقضوا عليهم لولا أن المربع الثانى أدركهم فدارت معركة شديدة بين الفريقين وكثر القتل فيهما بالرغم من تفوق جيش جراهام فى الأسلحة والعدد فلقد صمد جنود الأمير فى مواقعهم مستبسلين فى القتال وشعر جنود جراهام بالخطر الذى يتحدقهم فانسحبوا مكتفين بحرق المنازل فى تاماى ثم رجع جراهام بجنوده الى سواكن ومنها الى مصر بعد أن فقد فى هذه المعركة ثمانية آلاف واستشهد من الجنود السودانيين الفين وجرح كذلك عدد آخر .

كان لرجوع جراهام بجنوده الى مصر أسوأ الأثر على انصار الحكومة خاصة فى سواكن والذين شعروا بتخلى بريطانيا عنهم وعلى العكس فلقد ارتفعت معنويات جنود الأمير والتفت أعداد جديدة من حوله مؤيدة ومبايعة وعسكر الأمير بجنوده على سفوح الجبال ليطبق حرب الكمائن والعصابات ضد الانجليز .

وعندما فشل الانجليز فى هزيمة الأمير عثمان والقبض عليه لجأوا الى أحط الأساليب محاولين القضاء عليه كل هذا بعد أن أصبح بالنسبة لهم الرجل الخفى والذى لا يعرف الا من خلال أعماله فأعلن الأميرال هوايت فى ١٧ مارس ١٨٨٤ ان من يأتيه برأس الأمير عثمان دقنه حيا او ميتا يجزيه بخمسة آلاف ريال ولكن بعد ثلاثة أيام من تاريخ صدور الاعلان اتاه الأمر من بريطانيا بالغاء هذا الاعلان لمخالفته لمبادىء حزب الأحرار البريطانى .

رجع جراهام بجنوده الى مصر دون أن يحقق شيئا من الأشياء التي ارسل من أجلها فلقد فشل في انقاذ طوكر وسنكات كما فشل في فتح طريق سواكن بربر كما أنه فشل في القضاء على الأمير عثمان وجنود وكان كل ما عمله هو الالتحام بجنود الأمير في واقعتي التيب الثالثة وتأماى الثانية وتكبد فيهما الجانبان خسائر مادية ... كانت حملة جراهام بلا أهداف ولهذا فانها كانت بلا نتائج وقال اللورد كرومر عنها « ويكفى الاعتراف في الوقت الحاضر بان ما صار ذكره في هذا الفصل ليس مما ينظر اليه أي انجليزي بكبرياء وسرور فلقد ضاعت ارواح كثيرة ... مروعة مات فيها كثيرون من أولئك المتعصبين الهمجيين بسوء أن نحرز نتيجة سياسية تعتبر كفاية لما فقد من الأرواح وضاع في تلك العمليات كثير من الانفس » .

لقد كانت هذه الحملة بضغط من الرأى العام الانجليزي ولم يكن لها أى غرض هادف بل كانت انتقامية تحاول تأديب الجنود السودانيين الذين لطخوا سمعة الأمبراطورية التي لا تغرب الشمس عنها والحقوا بها هزائم جعلت العالم يتحدث عنها زمنا طويلا ... حملة أى نجاح بل المزيد من الضحايا الانجليز والمزيد من الهزائم للامبراطورية التي لا تغرب الشمس عنها وبرز منها الاضطراب الذي كانت تعانى منه السياسة البريطانية في السودان من أنسحاب في الوسط بقيادة غردون وهجمات انتقامية في الشرق بقيادة جراهام .

تعلم الأمير وجنوده الكثير من الحملات الانجليزية التي قادها جراهام فعرفوا أن العدو هذه المرة مختلف عن العدو الذي واجهوه من قبل ولذلك كان لابد من تغيير مخططاتهم القتالية فلجأوا للاعتصام بالجبال التي تشكل أرضا صالحة لحرب العصابات والكمائن اذ أن سلاح العدو الانجليزي لا يمكن مواجهته في أرض مكشوفة فلقد

جهزت بريطانيا جيوشها بأحدث الأسلحة الفتاكة ونصحتهم بعدم الدخول فى معارك لايضمنون نتائجها • لقدكانت بريطانيا حريصة على الا يلحق بجيشها أية هزيمة خوفا على سمعتها وخوفا مما حدث لجنود بيكر فكانت تهتم لسمعتها أكثر من احراز نصر مؤثر •

بعد هذه المعارك الدامية آمنت بريطانيا باستحالة فتح الطريق بين سواكن وبربر واستحالة السيطرة عليه بسبب قوة شكيمة الجنود السودانيين فى شرق السودان بقيادة الأمير عثمان دقنه •

●●●

الفصل العاشر

حصار سواكن

بمقتل غردون وسقوط الخرطوم انتهت مهمة حملة الانقاذ التى كانت بقيادة اللورد ولزلى وأصبح هنـالك جيش ضخم من الجنود الانجليز على بعد آلاف الأميال من بريطانيا بدون أى أوامر أو تعليمات واضحة بعد أن انتهى الهـدف الذى جاءوا من أجله وهو انقـاذ غردون .

هكذا نرى أن الهجمات البريطانية قد توقفت فى وسط السودان لتنقل بريطانيا كل نشاطها نحو شرق السودان .

أصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها للورد ولزلى لحمـاية دنقـلا لحين قدوم فصل الصيف الذى تقرر أن يكون فيـه هجـوم انجليزى على الخرطوم للقضاء على الامام المهدى ودولته .

كان لورد ولزلى يرى أن يقوم قبل قـدوم فصل الصيف بالقضـاء على الأمير عثمان دقنه وجنوده بالشرق ليلقن الامام المهـدى درسـا يخيفه وينقص من شهرته كمـا كان يرى حتمية الاستيلاء على سنكات وطوكر ومد خط حديدى من سواكن لبربر لمساعدة الحملة العسكرية .

تجاوبت الحكومة البريطانية مع لورد ولزلى وأمرت بارسال الجمال والدواب لسواكن لترحيل الحملة التى أقرتها الحكومة البريطانية وفى نفس الوقت تراجعت الحكومة البريطانية عن الاحتفاظ بدنقلا وأمرت بسحب القوات منها .

بدأت بريطانيا توجه قواتها وتركزها على شرق السـودان فأبرمت عقـدا مع شركة بريطانيـة فى ١٧ ــ فبراير ــ ١٨٨٥ على مد خـط حديدى بين سواكن وبربر واقرت وضع قيـادة الجيوش فى سـواكن تحت أمرة الجنرال جراهام واصدرت التعليمات له بسحق الأمير عثمان دقنه وتشتيت شمل جنوده .

أعدت بريطانيا جيشا جرارا لهذا الغرض مكونا من حملة لورد ولزلى و ٣٠٠٠ من الهنود والسيخ وفرقة من الخيالة البنغال وفرقة من مدفعية بومباى وفرقة من قوات مدراس .

هكذا حشدت بريطانيا أعدادا كبيرة من الجنود زودتهـا بأحـدث الأسلحة والمواد التموينية التى تكفيها لعدة شهور ولمـا كانت سواكن لا تسع هذا العدد الضخم من الجنود فانهم شيدوا معسكراتهم خارج مدينة سواكن .

كان الأمير عثمان دقنه مشددا الحصار على سواكن ومانعـا عنهـا المدد والمؤن عن طريق البر وبدأت بريطانيا تستغل أسـطولها البحرى فى مد سواكن بالمواد التموينية واللحوم والأخشاب من الخـارج عن طريق البحر . كما وقفت السفن المجهزة بالقطارات على رصيف سواكن لمدها بالمـاء المقطر بعد أن استولى الامير على آبار المياه التى كانت خارج سواكن .

عاد الجنرال جراهام للمـرة الثانيـة لسواكن فى ١٢ ــ مارس ــ ١٨٨٥ وتولى مسئولياته القيادية وامتدت معسـكرات جيوش جراهام لمسافات شاسعة حول مدينة سواكن . وطيلة فترة تواجـد القـوات الانجليزية فى سواكن فانها كانت تتعرض لهجمات القناصة من جنود الأمير عثمان دقنه التى كانت مستمرة ليلا ونهارا والتى لم ينتج عنها الكثير من القتلى بل حرمت الهجمات الليلية الانجليز من النوم ليلا .

بلغت قوات جراهام فى جملتها خمسمائة ضابط وما يزيد على العشرين ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة . كما جاء معهم بعض خبراء الطيران بالبالون ولكنهم لم يستطيعوا استعماله لشدة الرياح فى سواكن ولم يكن مع الأمير غير ٥٠٠٠ جندى فى هشيم و ٣٠٠٠ جندى فى تاماى حيث القيادة العامة للقوات .

كانت الأوامر لدى جراهام هى تحطيم جيش الأمير عثمان وانشاء حاميات انجليزية وطوابى على الجبال . وانشاء حاميات من العربان المنتشرين على الساحل كما كلف بمد الخط الحديدى عبر أراضى الهدندوه حتى أرياب أما فى حالة فشل حملة ولزلى فى الاستيلاء على بربر الا يتقدم جراهام بعد ارياب وأن يقوم بتفريق جنود الأمير من حول سواكن وحتى تتوقف حرب العصابات التى كان يخشى أن تقوم بتخريب فى خط السكة حديد .

بعد سقوط الخرطوم ازدادت قوه الامام المهدى وانخرط كل ألشعب السودانى فى دولة المهدى فى وحدة وطنية رائعة بعد أن تحقق استقلال السودان على يد الامام محمد أحمد المهدى وفى الشرق التفت القبائل حول الأمير عثمان دقنه مبايعة ما عدا قلة من ضعاف النفوس استجابت لاغراء المستعمر الانجليزى وبدأ عدد جنود الأمير يكبر يوما بعد يوم وظل يضيق الحصار على سواكن فيشتبك مع قوات العدو الانجليزى كلما خرجوا من أسوار سواكن .

ففى الثانى من فبراير ١٨٨٥ اشتبكت قوة من جنود الأمير عثمان دقنه بقوة من خيالة العدو الانجليزى كانت بقيادة الجنرال فريماتتل بمنطقة هشيم قرب سواكن وتكبدت القوة الانجليزية خسارة فادحة فى الأرواح والعتاد هربت على أثرها لتحتمى بأسوار سواكن . وفى اليوم الذى يليه تعرضت فرقة من جنود العدو الانجليزى على طريق

هندوب للابادة على يد جنود الأمير عثمان ولما تكررت مثل هذه الحوادث أبرق السير يرنق بأن كل التقارير التى تصلهم من سواكن توضح ضعف موقف القوات البريطانية وازدادت قوة الأمير عثمان دقنه يوما بعد يوم وهذا عكس ما كانت تتوقعه بريطانيا .

بناء على هذه الأحداث وخوفا من انهزام الجيش الانجليزى ضاعفت الحكومة البريطانية قواتها فى سواكن ودعمتها باعداد كبيرة من الجنود الانجليز والهنود علهم يستطيعون هزيمة الأمير الذى كان بالرغم من تفوق العدو فى العدد مستعدا للقائهم بعد أن ركز نشاطه على حرب العصابات وزاد من هجمات الفدائيين والقناصة على معسكرات العدو الانجليزى مكبده أياه الكثير من القتلى وأخذت هذه الهجمات تقض مضاجع العدو وتسلبه أرواح جنوده . وكان من أميز الفدائيين السودانيين عبدالله ودالأسد الذى كان يقود الهجمات على معسكرات العدو الانجليزى مستغلا ما كان يعرفه من لغة الانجليز فى المرور من الحراس وفى احدى الهجمات صحب معه ثمانية من الفدائيين وتسللوا الى مخازن السلاح بقرب قطارة المياه واستطاع هو وجماعته ابادة حراس المعسكر ولكن تنبهت احدى السفن الراسية بالقرب من المخزن على أصوات الضحايا الانجليز وهم يتصايحون ملاقين حتفهم فما كان من طاقم السفينة الا وأن أطلق مدافعها على كل من كان فى المكان دون تمييز فاستشهد الفدائى عبد الله ود الأسد وقتل جميع حراس المخزن .

كانت حالة الجنود الانجليز سيئة للغاية اذ كانوا يقضون يومهم تحت الشمس المحرقة يحفرون الخنادق فى الرمال الساخنة وعندما يخيم الليل يدفن جنود الأمير ما حفره الانجليز من خنادق . وما يكاد الجنود الانجليز يضعون رءوسهم للنوم بعد أعمال الحفر الشاقة الا وينطلق رصاص القناصة السوادنيين ليفتك بالتعساء منهم . هكذا

كان حال العساكر الانجليز : نهار شاق مرهق وليل غير معروف الخاتمة.

وفى ١٩ مارس ١٨٨٥ تحرك الجنرال جراهام من سواكن بقوة صغيرة للاستكشاف وفى يوم ٢٠ مارس تحرك جراهام بقوة كبيرة تتكون من ٣٠٦ ضابط و ٧٨٨٦ جندى و ٣١٧ تابعا و ١١٩٢ جوادا و٢١٠ بغلا و٧٣٥ جملا وعشرة مدافع ووصل حوالى الساعة التاسعة صباحا تل هشيم وقام بحصار جنود الأمير عثمان وفتح فيهم نيران المدافع الثقيلة والرشاشات وثبت الأنصار فى مواقعهم بالرغم من تفوق العدو واستمرت المعركة لأكثر من خمس ساعات تكبد فيها الجيشان خسائر فادحة فرجع جراهام الى سواكن دون احراز نصر بين ضد جنود الأمير عثمان .

واقعة توفرك ٢٢ مارس سنة ١٨٨٥

بدأ الجنرال جراهام يعد هجوما كبيرا على معسكر الأمير فى تاماى فاتخذ بعض الخطوات التمهيدية من مواصلات وتموين ومحطات على الطريق وفى ٢٢ مارس ١٨٨٥ تحرك الكولنيل ماكنيل بقوة كبيرة من الجنود الانجليز هادفا السير مسافة ثمانية أميال خارج سور سواكن لعمل ثلاثة زرائب واحدة تسع ألفى جمل والأخريان لتسع كل منهما فرقة من الجنود . وسلكت الحملة طريقا جديدا لتأماى كان مليئا بالشجيرات الشوكية والصخور مما عرقل سير الحملة وخفض سرعتها ولما وصل ماكنيل الميل الخامس رأى أن تقدمه الى الميل الثامن فيه خطورة شديدة وأن جهد ما تسمح به الاحتياطات العسكرية التقدم الى الميل السادس وكان يمد خط التلغراف من سواكن ليبقى متصلا بها ، فأرسل تلغرافا للجنرال جراهام يعلمه بالحالة ويبين له رأيه فصدقه فسار الى الميل السادس ونزل فى خور يعرف باسم (توفرك) وباشر بناء الزرائب ولكن قبل أن يتمها جاءت طلائعه وأخبرته بقرب جنود الأمير

الذى كان غارقا بالاستعدادات للهجوم عليه فأمر ماكنيل جنوده بترك العمل والاستعداد للدفاع عن أنفسهم وما انتظم العساكر فى أماكنهم حتى هجم عليهم جنود الأمير ففتح جنود ماكنيل أفواه البنادق والمدافع فلم يبالى بها الانصار بل هاجموا مستقتلين وأغمدوا فى الجند السيف والحربة واحتل الأنصار الزريبة بعد أن هرب الجنود الانجليز مخلفين وراءهم مايقرب الخمسمائة قتيل واستشهد عدد قليل من الانصار .

وفى نفس اليوم وفى حوالى الساعة الثانية من بعد الظهر هاجم جنود الأمير الميجر جريفيت الذى كان على رأس فرقة من الخيالة البنغال والانجليز بجوار منطقة توفرك وقتل جنود الأمير ٣٠٠ جندى ولم تقع خسائر تذكر بين جنود الأمير .واستمرت مناوشات جنود الأمير عثمان للجيش الانجليزى طيلة وجوده فى سواكن . ففى ٢٤ مارس ١٨٨٥ تعرضت فرقة انجليزية لهجوم من جنود الأمير وفقد الانجليز بعض الجنود بالاضافة الى الدواب . وبعد هذا الهجوم بيومين تعرضت قافلة انجليزية أخرى لهجوم من جنود الأمير فراح كذلك بعض الجنود ضحية للهجوم .

لما شعرت بريطانيا بضعف موقف جيشها فى سواكن بالرغم من ضخامته أرسلت تعزيزات جديدة لحماية سواكن التى وصلتها يوم ٢٩ مارس ١٨٨٥ وكانت تتكون من مدفعية ومشاه وخيالة من الجنود الاستراليين .

واقعة تاماى الثالثة ٢ أبريل سنة ١٨٨٥ :

تحرك الجنرال جراهام من سواكن فى قوة كبيرة من الجنود الانجليز يزيد عددها على التسعة ألف بين جندى وضابط مسلحين بأحدث انواع الأسلحة والعتاد قاصدا الهجوم على معسكر الامير عثمان فى تاماى ، ولما أرخى الليل سدوله عسكر جراهام وجنوده فى الزريبة

التى بناها الكولونيل ماكنيل فى تسلمهـــا . لم يستطع جنود جراهام النوم تلك الليلة اذ تعرضت الزريبة لرصاص القناصة من جنـــود الأمير عثمان التى قتلت منهم عددا كبيرا . ولمـا أصبح الصبح تحرك جراهـام بجنوده قاصدا تاماى ولمـا وصلها وجدها خالية . وكان الامير عثمـان قد أخلى معسكر تاماى وتحصن فى الجبال المجاورة لهـا وارسـل كشافة يناوشون الجيش ويتقهقرون من امامه الى الجبـــال التى تحصن فيها ليبعدهم عن المـاء ويحاربهم وهو فى مركز حصين وسار الجنرال جراهام قليلا خلف الكشافة ولكنه خاف التقدم فى الجبال فتوقف وعاد ادراجه لتاماى وقام بحرق القطاطى . ولمـا شـعر الامير بأن جراهام قد تراجع ارسل خلفه القناصة على ظهور الخيل فظلوا يتصيدون عساكر جراهام على طول طريق عودتهم الى سواكن فقتـلوا منهم عـددا غير قليل . وفى الفترة بين ١١ و ٢٠ ابريل من عام ١٨٨٥ حدثت اشتباكات صغيرة بين الانجليز وجنـود الامير فى هشيم واتو وتمبول وقام جنود الامير عثمان بقطع اسلاك التلغراف وتحطيم كل الخطوط الحديدية التى قام الانجليز بمدها كمـا اشاعوا الرعب فى معسكرات جنود العـدو الانجليزى من جراء عمليات القناصة والفدائيين التى كانت تحدث ليل نهـار .

لم يستطيع الجنرال جراهـام بالرغم من جيوشـه الجـرارة احراز أى نصر يذكر . كما وأن خط السكة الحديد لم يتقـدم أى تقـدم ملموس واتصـل الجنرال جراهام بزعماء القبـائل التى على طـريق الخط الحديدى ليساهموا فى حمـايته فطلبوا منـه أن (تتعهـد) بريطانيا بعدم التخلى عنهم مثل المرة السابقة ولكن بريطانيا رفضت اعطاء الاهالى أى تعهد بعـدم التخلى عنهم فشـعر الاهالى بضعف موقف بريطانيا فانفضوا من حولها والتفوا حـول الأمير عثمـان . امتد الخط الحديدى مسافة ١٨ ميلا خارج سواكن مكلفا ما يقارب المليون جنيه

وعاود الجنود السودانيون هجماتهم على الخط الحديدى بقيادة الأمير محمد آدم سعدون وهو من الأمارار وتوقف العمل فى الخط الحديدى نتيجة لهذه الهجمات .

وفى يوم ٦ مايو عام ١٨٨٥ هاجم الأمير محمد آدم سعدون فرقة انجليزية بقيادة جراهام فى منطقة (توهيكل) فى وادى أبنت وخسر الفريقان بعض الرجال وانهزم جراهام .

وفى يوم ٤ مايو عام ١٨٨٥ ابرق لورد ولزلى حكومته ناصحا بسحب الجيوش الانجليزية من سواكن بعد تفقدها ورأى بعينه الهزائم المتكررة التى لحقت بجراهام كما اقتنع بفشل جراهام فى تنفيذ الأهداف التى أرسل من أجلها .

هكذا وللمرة الثانية تقوم بريطانيا بسحب قواتها من سواكن بعد أن فقدت الثقة فى قوادها وجنودها واقتنعت بان جنودها لا قبل لهم فى التغلب على المحارب السودانى فى شرق السودان ولم تستطع حملة جراهام تحقيق هدف واحد من الأهداف التى أرسلت من أجلها .

رجع الجنود الانجليز الى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن فشلوا فى محو العار عن شرف امبراطوريتهم التى ذاقت مر الهزائم على يد جنود الأمير عثمان دقنه فى شرق السودان . انتهى عام ١٨٨٥ وبريطانيا قد ذاقت الأمرين فى السودان فغردون باشا قد فشل فى سحب الحاميات التركية ليس هذا فحسب بل لاقى مصرعه فى الخرطوم أما فى شرق السودان فلقد انهزم جنود بريطانيا العظمى أمام الأمير عثمان دقنه وخسرت فى ذلك آلاف الرجال وملايين الجنيهات وقدرا كبيرا من الجهد والطاقة كل هذا دون أن تنال شيئا من قوة الأمير عثمان دقنه كما اثبتت الأيام التى تلت عام ١٨٨٥ .

تركت الجيوش البريطانيـة عنـد رحيلها جبـالا من ركامات الخشب والحديد تحت رحمة البلى والصدأ بعد أن كانت حلمـا جميلا لخـط السـكة الحـديد . واشـتعلت النار فى المـواد التمـوينية ألتى احضرت للجيش وظلت نيرانهـا تشـتعل لمـدة ثلاثة أشـهر من كبر حجمها . لقد اهدرت بريطانيا أموالا طائلة على رمال سواكن دون أن تجنى من ورائها شيئا .

شهد الأمير عثمان دقنه كيف حشدت له بريطانيا آلاف الرجال من كل بلدان العالم بقصد القضاء عليه وها هم الآن يعـودون لبـلادهم يلعقون جراحهم ويتحسرون على رفاقهم الذين نقـدوهم على مشـارف سـواكن .

لقد شهد شرق السودان فى تلك الفترة احـداثا تاريخية جعلته من أشهر مناطق العالم ولم يخل بيت من بيوت الأمبراطورية التى لا تغرب الشمس عنها من ذكر الأمير عثمان دقنـه على مدى سـبعة عشر عاما فقلد احضرت بريطانيا الجنود من كندا والبنجاب والسيخ والبنغال وغرب أفريقيا والصومال ومالطة واستراليا وفرنسا وايطاليا وأمريـكا واليونان ولقـد شـارك الرجـال من كل هـذه البـلدان فى الحرب ضد الأمير عثمان دقنه دون أن ينالوا منـه قيد شـعره ، بل رجعـوا لبـلادهم يحملون من الهزائم ذكريات لا تنسى عن الأمير عثمان دقنه والمحارب السودانى فى شرق السـودان الذى لم يتركهم لينالوا من ترابه أو حريته شيئا . لقد ضرب المحـارب السـودانى فى شرق السودان أروع الأمثلة فى البطولة والتضحية مسترخصـا دماءه التى سألت انهارا على طول الساحل السودانى فى سـبيل الدفاع عن وطنه وعزته .

لقد لقن السودانيون المستعمر البريطانى دروسا قاسية على امتداد

شرق السودان وعرف الانجليز انهم لن يستطيعوا أن يهزموا الشعب السودانى بالرغم من تفوقهم فى السلاح والعتاد وتزويدهم باحدث آلات القتل والدمار .

وبانتهاء عام ١٨٨٦ أخذت اسوار تحصينات سواكن شكلها النهائى بعد أن شهدت كثيرا من التعديلات والاضافات من المحافظين الذين مروا على محافظة سواكن فلقد كان سليمان باشا نيازى محافظا لسواكن فى سنة ١٨٨٣ ثم خلفه بيكر لفترة قصيرة ثم الادميرال هوايت سنة ١٨٨٤ ثم كرومر اشبير نهام ثم الكولنيل كرمايد ثم الجنرال فريماتل ثم الجنرال هدسون ثم الجنرال ديكسون سنة ١٨٨٦ ثم خلفه فى نفس العام السير شارلس وادن ثم الماجور واطسون ثم الكولنيل كتشنر .

هكذا نرى أن الأمير عثمان دقنه قد احتك بعدد كبير من كبار قادة المستعمر البريطانى الذين لم يستطيعوا عمل شيء كبير ضده بل قبعوا داخل أسوار سواكن مستسلمين للحصار الذى فرضه عليهم الأمير عثمان وكان للقلاع التى شيدت خارج سواكن أثر فى تقليل هجمات القناصة كما أن سفن الأسطول البريطانى كانت تسلط كشافاتها ليلا وترسل قذائفها من القنابل والصواريخ فى محاولة لوقف الهجمات الفدائية الليلية .

مر عام ١٨٨٦ والسودان يخيم عليه الهدوء والاستقرار غير أن بعض الحوادث الصغيرة أخذت مجراها فى شرق السودان برهنت على أن حالة الحرب ما زالت قائمة .

عاد الأمير عثمان الى تاماى فى ربيع ١٨٨٦ بعد أن اجرى بعض المحادثات مع الخليفة عبد الله فى ام درمان . ولقد تجمع مع الأمير فى تاماى عدد كبير من قبائل شرق السودان ولقد امتدت ثكنات جنود الأمير فى تاماى لمسافة ميلين ونصف فى اتجاه التمنيب وتحصنت كل

مجموعة داخل زريبة من الشوك حتى لا تتعرض لهجمة شاملة وحتى يتعسر على العدو الهجوم . لقد شمل نفوذ الامير كل السودان الشرقى ما عدا سواكن . ولقد عين الامير عثمان الامير محمد مدنى دقنه اميرا على منطقة رواية وحتى الشيخ برغوث (بورتسودان حاليا) .

ولقد شعر الخليفة عبد الله بالخطر الذى يهدد شرق السودان من جراء تركيز هجمات بريطانيا عليه فأرسل مددا من الجنود من أمدرمان للامير عثمان فى تاماى .

اشتدت سطوة الامير عثمان فى عام ١٨٨٧ تشدد حصاره على سواكن بعد أن نقل رئاسة جيشه لمنطقة هندوب حتى يكون قريبا من سواكن ويحكم الحصار . بالرغم من تدعيم العدو لتحصيناته التى اختبأ خلفها فان هجمات قناصة الأمير عثمان لم تتوقف واستمر عدد الضحايا من الجنود الانجليز يزيد يوما بعد يوم ولم يبق للامير عثمان بعد أن احكم الحصار على سواكن وقطع عنها كل الامدادات والاتصالات البرية الا الهجوم عليها واسقاطها بالقوة ، ولكنه لم يكن يريد اسقاطها عن طريق الهجوم بالقوة بل كان يرى اسقاطها عن طريق التسليم بعد حصارها واستنزاف مواردها مثل ما فعل مع كل المدن الأخرى ، هذا بالاضافة الى أن أوامر الخليفة كانت تدعو بعدم فتحها عن طريق الهجوم ، كما أن الأمير أراد ان يتجنب عواقب ونتائج الفتح بالقوة مما ينتج عنه كثير من القتلى فى الفريقين ، وما يتبع ذلك من فوضى تروح فيها أرواح بعض من حلفائه من أهالى سواكن ، كذلك ما يحدث من نهب وسلب وتدمير للمبانى ولكل هذه الأسباب امتنع الأمير عن اقتحام أسوار سواكن بالقوة ولقد كان فى مقدوره هذا العمل .

مطـاردة كتشنر :

أرسل الأمير عثمان فى ٣ يناير سـنة ١٨٨٨ م حملة تأديبية كبيرة لتـأديب محمـود بك على وجماعتـه وبقى الأمير وجزء صغير من قواته فى هنـدوب .

سمع الكولونيل كتشنر بخبر حملة الأمير وعرف بقـاء الامير فى جيش صغير بهندوب فقرر مباغتته فى هندوب واختطافه . جمع كتشنر قوة كبيرة من المتطوعين والجندرمه . ولقد اختار المتطوعين والجندرمة لهـذه المهمـة بالذات حتى اذا هزموا لا تنسب الهزيمـة للقوات البريطانية . تحرك كتشنر بقواته من سواكن ومعه من القادة الملازم برنسب والملازم مكمورد والكابتن هيكمان فى فجر يوم ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ وترجلت القوات الراكبـة لتقف على مسافة بعيـده من هنـدوب حتى لايسمع جنـود الأمير أصـوات دواب الحمـلة ، وأعطيت لهم الأوامر بالهجوم متى ما سمعوا ابتداء المعركة .

استطاع جنود العدو الانجليزى مباغتة الامير عثمان وجنوده أثنـاء تأديتهم لصـلاة الصـبح وتراجع الامير وجنوده وتمكن الانجليز من الامساك بفرس الامير التى كانت بجوار خيمته فما كان من الامير الا أن امتطى جملا وقام بتنظيم رجاله وقادهم فى هجوم مضاد على جنـود الانجليز ومـا هى الا لحظة حتى انهـزم الانجليز من الأمير وأصيب كتشنر بطلقة قدت خده واستقرت فى فكه فسقط من جواده مغشـيا عليه فتلقاه محمد بك أحمد قمندان بوليس شرق السودان وأردفه خلفـه وعاد به نحـو سواكن ومعه فلول الحمـلة الانجليزية ومن خلفهم عثمان دقنـه وجنوده .

ولمـا وصل جنود الانجليز الى سواكن وجـدوا أبواب السـور مغلقة فما كان من محمـد بك احمـد الا أن قفز من فوق السـور

لينقذ حياة سيده كتشنر وليموت الجواد من تحتهما، ورقى بعدها محمدبك أحمـد الى رتبـة الاميرلاى وأطلق اهالى شرق السودان على كتشنر (تلابلا) أى ذو الخد المقدود .

هكذا رجعت فلول كتشنر بعد أن فقـدت الكثير من جنودهـا وضباطها وسافر كتشنر لمصر للعلاج ليعود مرة أخرى الى سواكن واستمر الأمير عثمان دقنـه مسيطرا على الموقف فى شرق السـودان .

أدت هزيمة حملة كتشنر هذه الى ازدياد قوة الأمير بانضمام المزيد من الاهالى اليه واستطاع جنود الامير تضييق الحصار على سواكن حتى وصلوا الى مسافة ألف وخمسمائة متر من أسوار سواكن وحفروا الخنادق على مسافة قريبة من السور وبدأوا يطلقون النيران من المدافع والبنادق على جنود الانجليز الذين كانوا على السـور .

أدى هذا التضييق الى تجريد حملة انجليزية بقيادة الـكولنيل تاب خرجت من سواكن فى محاولة لتشتيت شمل المحاصرين فاشتبكت معهم فى يوم ٣ مارس سنة ١٨٨٨ م انهزم فيهـا الجنود الانجليز من الأمير محمد فاى دقنـه الذى كان قائدا للجنود السـودانيين وفر الجنـود الانجليز الى أسوارسواكن ودخلوا مى بوابة السور وقفلوها تاركين من خلفهم قائدهم الـكولنيل تاب الذى هجم عليـه الأمير محمد فاى وقبل أن يصله اخرج الكولنيل مسدسه وأطلق منـه الرصـاص على محمد فاى فاخترق الرصاص صدره وقبل أن يسقط من جواده استطاع أن يضرب الكولنيل تاب بالسيف على رأسه فشق رأسه وسقط الأمير شهيدا بعد أن قتل قاتله .

وفى أواخر مارس سنة ١٨٨٨م وصلت امدادات للامير عثمان دقنه بقيادة الأمير مصطفى هدل من كسلا كما وصلت امدادات من أم درمان

بقيادة الأمير محمد عثمان . اشتدت ظروف الجفاف فى عام ١٨٨٨ وفى يونيو منه قام بارجاع النجدات التى وصلته نسبة لضيق المواد التموينية وشح الامطار .

واقعة الجميزة

استطاع الأمير عثمان نائب فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٨ أن يعسكر بقواته أمام تحصينات سواكن بمنطقة « الشاطه » و « الجميزة » وأخذ يقصف المدينة بالمدافع واستطاع أن يهدد الحامية التى أرسلت فى طلب مدد من الجنود الانجليز فوصل الى سواكن من مصر جيشا تعداده ٤٧٥١ جنديا من الانجليز والمصريين وحال وصول هذه الحملة الى سواكن تحركت للهجوم على عثمان نائب وقواته . اشتبك الجيشان فى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٨ فى نقطة (الجميزة) وكانت على قيادة الجيش الانجليزى اللورد كوك وهولد اسميث ومعهم ستة آلاف جندى وخسر عثمان نائب المعركة نسبة لأن جيشه كان تكون من ألف وخمسمائة مقاتل وتراجع بعد أن كبد الانجليز بعض الخسائر .

رأى الخليفة عبد الله أن ينقل الأمير عثمان دقنه رئاسة قواته من هندوب الى طوكر نسبة لوفرة المواد التموينية فى طوكر . فقام الأمير عثمان دقنه بحرق معسكره فى هندوب واستقر فى طوكر .

مرت الأيام دون حدوث أى اشتباكات تذكر غير هجوم جنود الأمير عثمان على حامية حلايب فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨٩ وقتل جميع العساكر الموجودين فى الحامية .

فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٩ تحركت قوة انجليزية من سواكن يبلغ تعدادها سبعمائة جندى للقضاء على محمد موسى دقنه الذى استطاع قتل عدد كبير من الجنود وفر الباقون الى سواكن .

الفصل الحادى عشر

المهدية فى كسلا

أرسل الأمير عثمان دقنه فى طلب أحمد طه أبو طاهر السمرأيدوابى من كسلا ليتم تعيينه أميرا عليها ولكن بعض أقرباء أحمد طه ممن لهم مصالح شخصية مع الاتراك تعلقوا به وتأخر بعض الوقت ليقوم باقناعهم فما كان من الأمير عثمان دقنه الا أن عين مصطفى على هدل أميرا عاما على كسلا والامير مصطفى من قبيلة الارتيقة وكانت له علاقة خاصة وقوية بالأمير عثمان عندما وصل أحمد طه وجد أن كل شىء قد تم واخبره الأمير عثمان بما حدث وتم تعيين أحمد طه أميرا على احدى الرايات وعلى من يتبعه من أهله ، ولم يكن قدوم الأمير مصطفى هو أول عهد كسلا بالمهدية فلقد شهدت منطقة كسلا قتل السنجك بشارة أغاالشايقى على يد الكميلاب والسمرايدواب ببلاد والسمر ايدواب قرب كسلا وكان محافظ كسلا انذاك راشد باشاكمال قمندان عساكر شرق السودان فانه خرج يريد مساعدة محمد بك توفيق الذى كان محاصرا فى سنكات وصحب معه محمد بك موسى ناظر الهدندوة ثم عاد راجعا لكسلا فى منتصف الطريق بعد أن سمع بخبر الكميلاب وقام باعتقال محمد بك موسى ولم يفرج عنه الا بعد أن تعهد بدفع مبلغ ثلاثة الآف ريال وكتب تعهدا بذلك ووصل خبر هذه الحادثة للخديوى فى مصر عن طريق مفتش البريد والبرق الذى كان فى زيارة لكسلا فأمر الخديوى بارجاع راشد باشا لمصر وتم تعيين محمد باشا قمندانا على عساكر شرق السودان فكان مركزه فى سنهيت .

وصل الأمير مصطفى هدل فلك مركز نظارة الهدندوه فوجد أحمد بك موسى شقيق ناظر الهدندوة وهو من اتباع الطريقة المجذوبية كما وجدحوا الحبشى وكيل محمدبك موسى ناظر الهدندوة فبايعاه وجمعا له عددا كبيرا من الجنود . وكان خورشيد اغا السنجك التركى موجودا بثلاثمائة عسكرى فى مركز فلك فاراد الأمير مصطفى هدل قتله هو وجنوده فما كان من محمد بك موسى الذى وصل فلك الا أن عارض ذلك وحال دون قتل السنجك أو القبض عليه .

ترك الأمير مصطفى هدل فلك وزحف بجيشه لحصار كسلا وكان يوجد انذاك فيهاأورطه من العساكر السودانية المنظمة ونفرمى الطوبجية فرج بك عزاز التقلاوى والمدير على كسلا أحمد بك عفت الشركسى وحول المدينة خندق وسور فيه خمسة أبواب وتسعة ابراج ومعهم بداخل الاستحكام ٢٠٠٠ من التبع و ٢٠٠ من التجار و ٥٠٠ من اهل الزراعة .

واقعة الجمام ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤

عسكر الأمير مصطفى هدل بجنوده قرب آبار الجمام وكتب لمحافظ كسلا بالتسليم ولكن المحافظ رفض بل أرسل جيشا مكونا من ألف وخمسمائة جندى على رأسهم فرج بك عزاز والسنجك التركى حسن أغا وعبد القادر ايله وطيفور أغا والسنجك الحلنقى والحسن الحلنقى وسليمان بن ناظر الحلنقة ومحمد سعيد الجعلى فتلقاهم الأمير مصطفى فى وسط غابة الجمام كامنا بجيشه وامهلهم حتى توسطوا الغابة وخرج اليهم بجيشه وهزمهم فى معركة استمرت من الصبح الى ما بعد الظهر واستشهد من جنود الأمير مصطفى ١٠٠ وقتل من الجنود الاتراك ١٠٠٠ وفر من بقى منهم حيا الى كسلا وغنم السودانيون أسلحة وذخائر كثيرة .

بعد هزيمة عساكر الحكومة التركية فى واقعه الجمام شعر محافظ كسلا بقوة الجنود السودانيين فشرع فى تقوية استحكامات كسلا واستعد للدفاع عنها وهدم احياء الحلانقة والجعليين والشايقية والفلاته التى كانت خارج الخندق لينكشف ما حوله ثم عمق الخندق وجعل المدافع على الابراج التسعة وأغلق بابين من أبواب السور وصف العساكر على خط النار فوجدها غير كافية لحماية السور فجند بعض المتطوعين وأرسل فى طلب المدد من الحاميات الأخرى نوصله ٢٠٠ جندى من اميديب و ١٠٠ من سنهيت و ١٠٠ من القلابات وجاء ٣٥ جندى من الجميزة لأخذ رواتب العساكر فحوصروا فى كسلا . أرسل السيد محمد عثمان الميرغني الى القبائل التابعة له يستنفرها فجاءه شكرية عطبره وعليهم الشيخ عمارة ولد حمد أبو سن والشيخ ابراهيم ولد قلبوس وشكرية القاس المعروفين بالنوايمة وعليهم ولد الفضل وبنوعامر وناظرهم الشيخ على بك بخيت والقادين جماعة الشيخ أحمد حجاج وبعض أهالى سبدرات جماعة الشيخ على نورين وقسم من الحمران منشياخة عجيل الحمرانى .والحلانقة بقيادةعبدالقادر محمد ايلة ولقد جاءوا بخيلهم ودروعهم والات حربهم فكانوا نحو ألف فارس بالدروع واللبوس و ٧٠٠٠ رجل .

أرسل الأمير مصطفى هدل فى طلب محمد بك موسى ناظر الهدندوة ليشاهد ما تم فى واقعة الجمام ولما حضر محمد بك موسى للامير مصطفى تحرك أحمد بك موسى شقيق الناظر والذى كان فى فلك لقتل السنجك خورشيد وعساكره وكان أحمد بك موسى متحمسا للمهدية لانه كان مريدا للشيخ الطاهر المجذوب فما كان من محمد بك موسى الا ان رجع الى فلك ونصح السنجك بالمبايعة والتسليم فقام السنجك ومن معه بمبايعة الامير مصطفى ومكثوا معه فى الجمام تسعة ايام ولما اطمأن لهم هربوا فى الليلة العاشرة بمساعدة محمد بك موسى الذى أرسل معهم عبديه ادريس بلال وخير واجد وكان ناظر الهدندوه يود

بذلك اجارة السنجك وجنوده الذين استجاروا به وكان الامير مصطفى يعلم بكل هذا ولكنه قدر مشاعر ناظر الهدندوه .

واقعة العشره مارس سنة ١٨٨٤

كان الامير مصطفى عالمـا بفنون القتال فكان يجنح لاستعمال حرب الكمائن ضد جنود الاتراك ففى مارس سنة ١٨٨٤ تحركت قوة كبيرة من الجنود من كسلا للقضاء عليه وعلم هو بتحركها الا انه وضع النقارة فى مكان بعيـد عن جيشـه وغرس حولهـا الاعلام وترك عليها بعض الرجال ليضربوا فى النقارة وكمن برجاله فى الطريق بين العشر ولمـا سمع الجنودصوت النقارة توجهوا نحوهامخترقين العشر ومتوسطين صفوف جنود الامير مصطفى فما كان من الآخرين الا أن هجموا عليهم هجمة واحدة وقتلوا منهم عددا كبيرا ولم ينج الا من كان بعيدا عن ميدان المعركة .

نقـل الأمير مصطفى معسكره من العشرة الى قلوسيت فخرج اليه الأميرلاى فرح بك دقاش واستطاع الأمير مصطفى هزيمته ولكن كانت خسائر الامير مصطفى كثيرة لان المكان ليست فيه اشـجار كالواقعتين السـابقتين .

وصل الامير مصطفى هدل عمارة ولد ضـاوى حاملا كتابا من الامام المهدى بتعيينه اميرا على اهله تحت امارة مصطفى هدل ولكن عمارة غير فى الخطاب وجعل الخطاب يقرأ بان مصطفى هدل يكون تابعـا لعمـاره .

واسـتطاع عمارة ان يستقطب بعض امراء الرايات فاستقطب بلال السمر ايدوابى وكل من معه من الهـدندوه وكذلك الحسـن عبد الله ودحاش ومحمد حامد ابراهيـم ابن عم ناظر الهدندوه فأرسـل الامير مصطفى خطابا للامير عثمان دقنه يخبره بأعمال عمارة وضاوى

أرسل الامير عثمان دقنه فى طلب محمـــد بك موسى وبلال الامين والحسن عبد الله ودحاش وأحمد عركى فسافروا اليه فى تنسلها حيث مكثوا اربعة اشهر وتباحث معهم الامير عثمان موقف كسلا بحضور الشيخ الطاهر المجدوب وابنه محمد واتفقوا على ان ينضم بلال الى ابن عمه باشريك ويكون معسكرهم بجهة اغردت وينضم الهدندوه وكل القبائل الاخرى للامير مصطفى وهرب عماره ودضاوى الى الحبشة.

واقعه تنبكياى ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤

أقام محمد حامد ابراهيم ابن أخ ناظر الهدندوه بجيشه فى منطقـــة تنبكياى وفى هـــذه الفترة التحق به باشريك السمرايدوابى وسمع محمد حامد بان السيد محمـــد عثمان ارســل قافلة مكونة من خمسين جملا فيها الدقيق والتمر والارز والسمن وكافة الماكولات متوجهة الى الخاتمية للسيد البكرى فارسل محمد حامد فرقة من جنوده قتلت رجال القافلة وغنمت كل ما فيها ونقلوه الى معسكرهم فى تنبكياى فلما سمع السيد البكرى بذلك الخبر انتدب عصابة لتقاتله حتى تضطره للرحيل من تنبكياى فلما شاهدهم محمد حامد امتطى جواده ولحقه ابراهيم أبو زينب من الويلعالياب وهجما بجواديهما على العصابة فقتــلا فى الرمله بجواديهما وســلبت العصــابة اســلحتهما وفرســيهما وغادروا بالجميع الى الســيد البكرى وذكروا له أنهم قتــلوهما بالرصاص من بعد وهم فى ضفة القاش الشرقية وانضـم جيش محمد حامد بعد هذه الواقعة الى جيش مصطفى هدل وعرف ناظر الهدندوة بقتل ابن عمه محمد حامد وعمــه ابراهيم وذهب لمــكانهما وقام بدفن الجثتين .

رأى السيد محمد عثمان المرغنى أن الخطب قد تفاقم الى حد لايمكن ملافاته الا اذا جاء المدد من مصر فلم يجىء المدد من مصر فخاف اذ

بقى أن يقع فى الاسر فقر رايه على الخروج من الخاتميه فخرج فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٤ قاصدا مصر فشيعه العربان الذين كانوا مجتمعين عليه الى الدقا وتفرقوا الى اماكنهم أما السـيد فانه بقى فى الدقا مدة ثم ذهب الى مصوع فمصر فاقام فى مصر بضعة أيام ثم توفى .

وتولى الخاتمية بعد ذهابه ابن عمه السيد البكرى بن السيد جعفر المرغنى ولم يبقى معه الا اخلاط من الدناقلة والجعليين والحلانقة والبجة فبنى سورا حول الخاتمية جعل بناءه اقساطا على كل جماعة قسـطا حتى اتموه على ارتفاع خمسة امتار فى أقل من شهر وكان جـداره من جهة الشرق الجنوبى جبل الخاتمية .

واقعة سدينة الأولى والثانية :

فى ٣٠ يوليوسنة ١٨٨٤ زحف الأمير مصطفى هدل على حلة الخاتمية مصمما على فتحها فنزل فى سدينة غرب القاش وكان قد علم بخروج محمد عثمان منها فكتب الى السيد البـكرى بالتسليم فطلب السـيد البكرى المدد من كسلا فجاءه الف رجل من جهاديه وباشبوزق بقيادة الصاغ فرج افندى من ضباط مددأميديب ومعه من الرؤوس صالح بك البغدادى وعبد القادر بك محمد ايلة الحلانقى فاشـتبكوا مع جيش مصطفى واشتد القتل فى الجيشين وعند الغـروب انفصـلا عن بعضهما ورجع السيد البكرى بجيشه الى كسلا وفى اليـوم التـالى ضرب مصطفى هدل نقارته وجمع جيشه وعاد بهم الى الحرب فخرج اليـه فرج بك عزاز بالف وخمسمائة مقاتل من كسلا مع فرسان السيد البكرى من الخاتمية وخسر الفريقان كثيرا من الرجال وتراجع مصطفى هدل الى معسكره فى قلوسيت .

اثناء وجود وفد كسلا فى تسلها ارسل الأمير مصطفى هدل ابن عمه جمعه يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤ بسرية من جيشه لتأديب الملهيتكناب

الذين كانوا على الطريقة الختمية وكانوا يقتلون كل من يجدونه منفردا من جيش الأمير مصطفى هدل ويطعنون فى المهدى والمهدية ولهم فى ذلك اشعار وكتب كثيره ونشب القتال بينهم وبين جيش جمعه فهزموا جيش جمعه . وبعد أيام هجم عليهم مصطفى هدل بجيش كثيف أضعاف اضعافهم وافنى كل رجالهم وأسر النساء والأطفال وتولى الصرف عليهم فى معسكره فى قلوسيت . فى هذا الأثناء وصل الى كسلا رجل جعلى اسمه عوض الكريم كافوت ومعه والده واسمه (فضل الله) وكان قد ذهب بتجارة الى شكا قبل الثورة فلما كانت الثورة انضم الى المهدى فارسله أميرا على قومه الجعليين بالتاكا وكان لأهله مهارة فى الحرب فجمعهم وأخذ يغزوا بهم الشكرية الذين على نهر عطبره فقتل من رؤسائهم عوض الكريم دكين واخاه أحمد وكان من عادة أهل كسلا الخروج من الاستحكام لجمع الحطب للوقود والعلف للبهائم فوقف لهم عوض الكريم بالمرصاد .

وفى أواسط سبتمبر سنة ١٨٨٤ غزا على نورين شيخ سبدرات بلاد السمرايد واب فاصاب قطيعا من الماشية فى كسلا وعاد الى سبدرات فجمع باشريك السمرايد وابى قومه وقصد سبدرات فكمن له على نورين خارج البلده ولما أطل خرج من الكمين واوقع بجيش باشريك وجرح على نورين فى وجهه وتراجع جيش على نورين بعد جرح قائده .

لم يكن على نورين يشك فى عودة باشريك للاخذ بثاره فكتب الى المدير يسأله المدد فارسل اليه المدير ٢٥٠ رجلا من جهاديه وباشبوزق بقيادة اليوزباشى دياب اغا والسوارى ابراهيم اغا البدوى فأقاموا حاميتين فى سبدرات ولم يلبث باشريك أن عاد بجيش عظيم فهزم العساكر المحافظين عليها وقتل أهلها واحتلها اما على نورين فقد حمله ابنه وفر به الى كسلا .

كان السيد محمد عثمان لايزال فى الدقا فلما سمع بنكبة سبدرات كتب الى المدير يسأله بارسال جيش الى سبدرات فى يوم معين وساعة معينة فيهاجم باشريك من الغرب وهو يوجه البخيت شيخ بنى عامر فيها جهة من الشرق فى الميعاد المضروب . فخرج المدير بنفسه بألف وخمسمائة رجل من جهاديه وياشبوزق ومعه من الرؤوس القائمقام فرج بك عزاز والسر سوارى بشير اغا كمبال والسر سوارى حسن اغا سليمان وكان على نورين قد تعافى من جرحه فصحبه المدير ونزل بالجيش فى خور ملاس غرب سبدرات وعمل زريبة من الشجر ومكث ينتظر قدوم الشيخ بخيت ولكن الشيخ بخيت لما وصل سبدرات بادرها بالهجوم ولميعلم المدير بقدومه وكان جيش باشريك أقوى من جيشه فانهزم جيش على بخيت وقتل كل جنوده وبقى هو وابن اخيه فكى حامد موسى وقتل جواد على بخيت فكان فكى حامد يحاول رفع على بخيت على الجواد ليردفه معه فلا يقدر على حملة فيهجم عليه فرسان باشريك فيتركه ويفرقهم وما زال الحال هكذا حتى قتل فكى حامد ثم رمى جنود باشريك على البخيت بالحراب والعصى حتى قتلوه لأنهم خشوا من التقدم اليه اذ استل سيفه وجلس على فروته وخشيت الفرسان من الهجوم عليه وقطعوا رأسه . أما على بك شكيلاى فانه ترك خيله وتسلق الجبل ومعه ابنه عثمان وعلى فارس الحلنقا وتسلقت اليهم عصابة وقتلتهم وقطعت رأس على الشكيلاى وحملته أيضا . وهاجم جيش باشريك معسكر المدير ولكنه فتح فيهم نيرانا قوية مما اضطر باشريك الى التراجع الى معسكره فى قلوسيت.

واقعه قلوسيت ٥ يناير سنة ١٨٨٥ .

اغتر المشايخ المؤيدين للاتراك بالنصر الضعيف الذى نالوه على جنود الثورة المهدية فزينوا للمدير أن يهاجموهم فى ديمهم العام فى قلوسيت فرضى بذلك وفى يوم الاثنين ٥ يناير سنة ١٨٨٥ جهز نحو ألفى رجل من جهاديه وباشبوزق وعزم على الخروج للحرب بنفسه فزلقت رجله

وهو نازل على سلم المديرية ففصلت قدمه فسلم قيادة الجيش الى فرج بك عزاز فزحف به على قلوسيت حيث معسكر مصطفى هدل وكان مصطفى قد بلغه عزم الجيش على الهجوم عليه فاستعد لملاقاته وكان عوض الكريم كافوت متغيبا فى غزوة النوايمة فبعث اليه يستعجله فى الرجوع الى الديم فوصل قبل وصول الجيش بقليل والتقى الجمعان عند الضحى فى ظاهر ديم قلوسيت فهاجم الجنود السودانيون بحزم وثبات مستقتلين فلم يكن الا القليل حتى دخلوا وسط العساكر واوقعوا فيهم الهزيمة فانهزموا والأنصار من ورائهم تقتل بهم طعنا بالرماح وضربا بالسيوف الى جبل مكرام شرقى كسلا ولقد قتل من العساكر التركية وحدهم ٧٥٠ رجلا من نظاميه وباشبوزق فيهم ١٧ ضابطا وغنم الانصار مدفعا وأسلحة كثيرة .

وهكذا تحطمت قوات المستعمر التركى فى كسلا وحاصرهم السودانيون فى داخل اسوارهم التى لم يستطيعوا مغادرتها قيدشبر

سقوط الخاتمية مايو سنة ١٨٨٥

وفى ٦ ابريل سنة ١٨٨٥ عاد الحسن عبد الله حاش الى كسلا ومعه منشور من الامام المهدى بالأمارة على من يتبعه فتبعه عدد قليل من الجيش فزحف به فى ١١ ابريل الى المدينة وحاصر كسلا والختمية معا ومنع ما كان بينهما من اتصال .

ثم كتب للسيد البكرى يطلب منه التسليم كما عرض عليه تعليمات الامام المهدى بجعله اميرا على كل المحاربين . ولم يطمئن السيد البكرى له فارسل فى طلب بلال السمرايد وابى نظرا لسابق المودة بينهما فاتاه الى باب سور الختمية وأكد له قول الحسن ود حاش وعاهده اذا خرج لمعسكر الأنصار أن يحميه من كل ضرر فاستشار السيد البكرى المدير وخرج الى ديم الانصار ومعه ١٥٠ رجلا من جهادية وباشبوزق فرحب به بلال وباشريك وبات ليلته عند بلال ولما أصبح الصبح يوم ٣ مايو سنة ١٨٨٥ اجتمع اليه الأمراء ماعدا مصطفى هدل

فانه بقى منفردا بجيشه واشتد الجدل بين السيد البكرى والأمراء فى شأن المهدية والتسليم وانهم لكذلك اذا بعوض الكريم كافوت قد انقض على خفراء السيد البكرى فقتلهم عن آخرهم ثم انقلب على السيد البكرى يريد قتله فرمى بلال السمرايد وابى بنفسه عليه وحماه من القتل وكذلك فعل على شاتير الجعلى وابراهيم حمد الشبودينابى فاحتمله محمد بك موسى ناظر الهدندوه الى محل الأمان فاتى مصوع فسواكن فمات فيها . وفى الوقت نفسه زحف مصطفى هدل بجيشه على الخاتمية فأخذها غنيمة باردة ثم جاء الحسن ود حاش بجيشه فاحتل الخاتمية وعاد مصطفى هدل الى كسلا فحصرا كسلا من الشمال والجنوب وضيقا عليها الحصار .

كان مدير كسلا أحمد عفت على اتصال دائم مع خسرو باشا قمندان عموم شرق السودان فى سنهيت فكتب اليه بعد واقعة الجمام يسأله المدد والنقود فبعث بالنقود بحراسة سعد بك رفعت بمائة رجل وعاد المدير الى طلب النقود والمدد فأجابه عندىء نقود ولكن ليس عندى خفراء لحمايتها فى الطريق وقد سالت مصر تلغرافيا لرسال المدد فمتى حضر أرسله اليكم مع النقود .

كان المحافظ على سواكن فى هذا العهد تشرمسيد باشا فبعد أن فاوضه خسرو فى شأن كسلا كتب الى المدير كتابا آخر يقول أن الحكومة ليس عندها مدد فتخيروا الرأى الذى ينجيكم من العصاه واذ أمكنكم فاتركوا المثقلات فى مكانها وتحركوا الى مصوع .

فجمع المدير الضابط والتجار وتلاعليهم الكتاب فكتبوا فى الرد أن كثرة عائلاتنا تمنعنا من الخروج بلا نجده قويه ويلزمنا ٥٠٠ جمل وخفراء أقوياء لحفظنا فى الطريق فلم يجبهم بشىء ولكنهم لم يهتموا فى بادى الأمر لابطاء المدد لأنهم كانوا فائزين على الأنصار فلما كانت واقعة قلوسيت واصيبت الحامية بتلك الضربة الموجهة أرسل المدير عبد القادر كبير الحلانقا الى سنهيت يستعجل المدد والنقدية

ويقول أنه لم يبق للحامية سوى قوت شهرين وقد اشتد الحصر عليها حتى لم يعد يمكنها الخروج فى طلب القوت . فابلغ خسرو باشا الخبر الى تشرمسيد باشا بسواكن وبعد ذلك بقليل وصلت حامية اميديب ومعها السيد محمد عثمان المرغنى الى سنهيت واستطردت السير الى مصوع فصحبها عبد القادر بك وبعد قليل لحقتها حامية سنهيت كما مر وانتظر المدير المدة التى كان يمكن لعبد القادر بك الرجوع بها فلما لم يرجع ولا ورد منه خبر أرسل أربعة جاويشية الى سنهيت ليعلموا بالخبر فوجدوا خسرو قد اخلى سنهيت فلحقوه الى مصوع

وكانت الحكومة الخديويه تفاوض ملك الحبشة بشأن الحاميات التى على الحدود فكتب الكولنيل تشرمسيد الى الملك يوحنا فى ١١ ابريل ١٨٨٥ يستحثه على التعجيل فى ارسال المدد ويقول اذا لم تسرعوا فى ارسال النجدة فالحامية لابد من سقوطها وقد وعدوه بعشرة آلاف بندقية فارسل الملك يوحنا أمره الى الرأس الولا لانقاذها لأن جهته مواليه لكسلا فابطأ فى نجدتها .

وكتب خسرو الى المدير بعد المفاوضة مع تشرمسيد بما مفادة أعلم أن الخرطوم قد سقطت وانسلخ السودان من مصر وغير متيسر للحكومة ارسال عدد اليكم من جندها ولكن المفاوضات جارية مع ملك الحبشة للاسراع فى نجدتكم فاعقدوا مجلسا من اعيان المدينة وانظروا أمر سلامتكم فاذا حكمتم باخلاء الحامية فخاطبوا ملك الحبشه رأسا ولقد وعدوا بعشرة ألاف بندقية مكافأة على ما عساه أن يبذل من المساعدة لكم فكتب المدير الى ملك الحبشة فى طلب المدد فكتب الى حكومته فى ١٣ ابريل سنة ١٨٨٥ يقول ان الحامية قد صارت فى أشد الضيق فقد نفذ منها الزاد واضطرت الى أكل الحمير ونحن لا نزال ننتظر النجدة اذ لا يمكن الخروج من الحصن بدونها .

ولما لم ير مدير كسلا جوابا من الحكومة ولا من الحبشة على الحامية فى طلب المدد ورأى أنه اذا طال هذا الضيق على الحامية اضطرت الى التسليم أو الموت جوعا . اختار التسليم على الموت

ولكنه خاف من التسليم الى مصطفى هدل فجمع ضباط الحامية وتجارها وكتبوا الى المهدى فى الخرطوم كتابا يخبرونه فيه ارسال امناء من طرفه ليسلموا لهم وقالوا فيما بينهم اذا جاءنا المدد قبل مجىء الأمناء استعنا به على المحاصرين والا سلمنا لهم .

بعث الامام المهدى حسين ابراهيم الشهير بالزهرة وابراهيم أحمد عالم وجماعة من اصحابة ومعهم كتاب منه الى اهل كسلا .

عرف الحسن ودحاش بتوجيه الأمناء من أم درمان الى كسلا وكان عارفا باتصالات المدير بالاحباش وتخوف من وصول نجدات حبشية فهاجمها فى ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ هجمة صادقة فامطرت الحامية عليه سحائب الرصاص والقنابل فقتلت الكثير من جنوده ولكنه كان مصمما على فتحها فى ذلك اليوم فعاود الهجوم عليها المرة تلو المرة حتى قتل من جيشه عدد كبير فتوقف عن الهجوم واستمر فى الحصار .

وبعد الواقعة بايام معدودة وصل أمناء المهدى وهم الحسن الزهرة وادريس عبد الرحيم وعبد الله حمزة وأخوه محمد فنزلوا فى معسكر توكرف وكتبوا الى المدير يدعونه للتسليم ومعهم كتاب من الامام المهدى . فعقد مجلسا من الضباط والتجار والموظفين للنظر فى أمر التسليم وقبل أن يصلوا الى تتيجة فى اجتماعهم حضر اليهم رسول من الرأس الولا الحبشى يقول« تشددوا واثبتوا فانى منجدكم قريبا » فاقروا اذ ذاك على انتظار النجدة وعدم التسليم فهاج المحاصرون وأخذوا ايناوشونهم القتال الليل والنهار وكان العساكر يصدون الهجوم وقد اطلقوا يوما مدافعهم فقتلوا عبد الله حمزة أحد الأمناء وعشرة آخرين .

تسليم حامية كسلا فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٥

تحصن أهل الحامية داخل حصونهم حتى نفذ منهم القوت أو كاد ولم يبقى لهم طعام سوى الجلود القديمة والأشياء المسترذلة حتى صار

يموت منهم فى اليوم ٤٠ نفسا أوازيد فلما رأى المدير اشتداد الحال الى هذا الحد وقد يئس من انتظار المدد لم يربدا من التسليم فانتدب ثلاثةمن رجالهوهم اليوزباشى حسن افندى برنوس والصارى طيفوراغا وحسين أفندى خليل معاون التلغراف وارسلهم الى الأمناء بكتاب التسليم على أنهم لا يؤذون أحدا من أهل الحامية ولا يأخذون منهم سوى خمس مالهم فتلقاهم الحسين الزهرة كبير الأمناء عند جميزة العوف (وحلف لهم الكتاب) على ذلك فخرج المدير اليهم راكبا حمارا بنفرمن الضباط والموظفين الملكيةوالتجار وفيهم اليوزباشى على أفندى هوجه والسنجك بشير أغا كمبال وحسين أفندى بدوى وكيل المدرية والعوض المرضى باشكاتب المدرية وبرسوم القبطى رئيس الحسابات وعلى جاويش من أعيان التجار فتلقاهم الحسن الزهرة عند الجميزة بالترحاب ثم أحضر لهم طعاما من اللبن والعصيدة والسلات فأكلوا ثم بايعوه باسم المهدى فالبسهم الجبب المرقعه وأرسلهم الى (توكرف) ثم ساق الجيش ودخل الخندق .

كان العساكر قد تركوا خط النار واووا الى منازلهم فأحاط بهم الأنصار وبالمنازل الأميرية واستولوا على الخزينة فما وجدوا فيها شيئا يذكر ثم استولوا على مخازن الجبخانه والأسلحة فوجدوا فيها ٦٠٠٠ بندقية ارشليت وكبسول قديم و ٢٠٠٠ بندقية رمنتون وشيئا كثيرا من الجبخانة ماعدا المدافع والبنادق التى كانت على خط النار ثم دخلوا المنازل وجمعوا الأسرى فكانوا ٣٠٠ من العساكر النظامية و ٤٠٠ من الباشبوزق و ٥٠٠ من التجار و ٢٦٠٠ من النساء والأولاد والجملة نحو ٤٨٠٠ نفسا . فقسموهم قسمين قسما أرسلوه الى ديم الحسن ودحاش فى الخاتمية وآخر الى ديم مصطفى هدل فى توكرف .

كتب الأمناء الى الخليفة عبد الله بام درمان والأمير عثمان دقنه بجهة تاماى يعلمونهما بفتح كسلا فحضر الأمير عثمان الى كسلا وكان الخليفة قد أرسل اليه كتابا بموت الامام المهدى وطلب اليه أن

يدعوا أهل عمالته الى تحـــديد البيعه له على يده فعنـد وصـوله الى كسلا صعد على سطح ديوان المديرية فاجتمع اليه الأمراء والأنصار فقرا لهم كتاب الخليفة ثم قال ان كنتم تعبـدون الامام المهـدى فان الامام المهدى قد مات وان كنتم تعبدون الله فالله حى لايمـوت والخليفة عبد الله هو خليفة المهدى القائم بالأمر بعده فهل انتم طائعون له متبعون لأمره ؟ قالوا كلهم نعم ثم بايعوه باســم الخليفة .

واقعة كوفيت فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥

٦ بعد وصول الأمير عثمان دقنه الى كســلا بايام معدودة أتت اليــه امرأه من نساء الهدندوه تنادى بأعلى صوتهــا (واغوثاه اللصــوص التقونى بجانب جبل مكرام وأخذوا منى حمارتى واشيائى التى عليها) وكان الأمير جالسا مع نفر قليل من أصحابه فقام لساعته مسرعا نحــو الجبل « ان من يكره الظلم ويابى التعدى فليتبعنى » فتبعــه أصحابه الذين كانوا جالسين معه فطاردوا اللصوص الى سبدرات فلم يقفوا لهم على أثر ثم تبعه الجيش كله وفيه من الأمراء مصطفى هــدل والحسن ود حاشى وبلال السمرأيد وابى وباشريك السمرايد وابى وعوض الكريم كافوت ولم يبق فى كسلا الا نفر قليل لحمايتها وخفر الأسرى واتاه الى سيدرات أحمد حجاج شيخ القدين وعجيل شيخ الحمران فامنهما وزحف بالجيش كله على كوفيت فى حدود الحبشة واستعد لملاقاة الأحباش .

وكان الرأس الولا اذ ذاك فى اسمرا يستعد لنجدة كسلا فلما بلغــه خبر سقوطها وهجوم الأمير عثمان دقنه على الحدود كتب الى الأمير عثمان خطابا كله تهديد ووعيد .

وفى ٢٢ ســبتمبر سنة ١٨٨٥ حضر الرأس الولا بجيش جرار الى كوفيت ومعه على نورين شيخ سبدرات وعبد القادر بك ايله ومحمد الفيل شيخ بنى عامر وكان جيش الرأس الولا عشرين ألف وجيش الأمير

عثمان دقنه نحو عشرة الاف وكان دجاج قبرو فى مقدمة الجيش الحبشى والتحم مع جيش الامير عثمان واستطاع جيش الامير قتل معظم جيش دجاج قبرو كما قتل دجاج قبرو نفسه وهرب من بقى من مقدمه الجيش الحبشى للالتحاق بجيش الرأس الولا الذى تقـدم واشتبك مع جيش الأمير عثمان وشتد القتال بين الفريقين وقتل عدد كبير من الجانبين ولما شعر الامير بقوة وكثرة الجيش الحبشى انسحب بجيشة الى كسلا.

وحال وصول الامير عثمان دقنه الى كسلا أمر بحبس احمد بك عفت المدير وابراهيم أفندى شوقى الشركسى باشمعاون المدرية والسراسوارى حسن أغا سليمان الارناؤوطى وثلاثة من التجار هم الخواجة استليو اليونانى والخواجة بدروس الارمنى وعلى جاويش الحجازى وشكل لهم محكمة بتهمة الخيانة والتآمر مع الاحباش أعداء الوطن وكان الامير عثمان قد لقى بين قتلى الاحباش فى كوفيت كتبا منهم يستحثون فيها الرأس الولا لنجدتهم ويسيئون فيها الى المهدى وأعوانه . وبرأت المحكمة ابراهيم شوقى وعلى جاويش وحكمت باعدام الباقين .

كتب الخليفة الى الامير عثمان فأخذ الخمس من الغنائم وقسم ألباقى على الامراء ثم أرسل الامناء مع الاسرى والغنـــائم الى أم درمان فأرسل نحو الف من الجهادية وجانبـــا كبيرا من المدافع والاسلحة والذخائر فهرب من الاسرى الجهادية فرج افندى بأربعة وخمسين رجلا واتى بهم عن طريق مصوع .

كان من ضمن ما وجده الامير عثمان فى كوفيت خطابات من السيد البكرى للرأس الولا طالبا منه المدد فأخذ الامير عثمان جيشــه وهدم منازل الختمية وخرب ضريح السيد الحسن المرغنى وجامع نجله السيد محمد عثمان تخريبا تاما وأخذ ما فيهـا من أبسطة وطنافس غنـــائم أرسلها لمقر قيادته فى تاماى ومن ضمنها راية من الحـرير الاصلى . وأمر الامير بجلد كل من يزور خرائب الضريح .

سافر الامير عثمان الى أم درمان حيث تبـــاحث مع الخليفة حول

الموقف فى شرق السودان وخاصة ولاية الامير محمد فاى لكسلا اذ أن قبائل الهدندوه تقدمت بشكوى ضده تظلموا فيها من فداحة الضرائب والتي فرضها أمين بيت ماله عبد الله أبو بكر الذى كان سبب فى كثير من مشاكل الأمير محمد فاى فأمر الأمير عثمان محمد فاى بالسفر لهندوب وعين الخليفة حامد أميرا على كسلا كما أرسل الخليفة الامير محمد عثمان ابو قرجة بجيش يبلغ العشرة الاف محارب لمساعدة الامير عثمان دقنه .

رجع الامير عثمان من أم درمان عن طريق كسلا ووجد فيها حالة شديدة من الرعب بسبب هجوم الضباع على المواطنين ليلا ونهارا فقام بحصار جبل مكرام حيث تسكن الضباع وقام بابادتها فعاد الهدوء والامن الى كسلا ورجع الامير لتاماى .

الفصل الثاني عشر

درب كات وقيلا أور والمتخلفين

درب كاتى لفظ بجاوى معناه « حامى الطريق » ولقد أطلق هـذا اللفظ على محمود بك على واشتهر به . فلقد كان محمود على هذا شيخا لقبيلة الفاضلاب التى هى احـدى فروع قبيلة الامارار فى ألعهـد التركى ، ولمـا كانت قبيلة الفاضـلاب تسكن فى المنطقة الواقعـة بين سواكن وسنكات فلقد كلفت الحكومة التركيـة محمود على ليقوم بحراسة هذا الجزء من الطريق بين بربر وسواكن وكان محمود على يتقاضى مبلغا من المال يعتبر فى ذلك الوقت أجرا كبيرا وهو خمسة وعشرون جنيها استرلينيا ولقد أعطى محمود على كلمته للحكومة التركية وتعهد بحماية الطريق ضد أى من كان واستمر ملتزما بكلمته هـذه حتى قبيل مماته .

عرف محمود على بالشجاعة والكرم كما عرف بالوفاء والمروءة ومما يحكى عن وفائه أن قاتلا استجار به فاجاره فحضر أهل القتيل يطلبون القاتل وأمام الحاحهم فى الطلب لم يملك محمود على الا أن اوعدهم بأنه سيخدع القاتل ويطلب منه الرحيل بعـد أن يزوده بالمـاء والاكل وحدد لهم طريقا معينه لسفر القاتل ولمـا انصرف أهل القتيـل جمع محمود على ابناءه وأخبرهم بالقصة وطلب منهم ان يفتدى القـاتل بأحدهم ليسـافر مكانه . وتطوع أحد ابنـائه وسافر فى الطريق التى حددها محمود على ولمـا أقبل عليه الليل تدثر بثوبه ورقد • وفى

منتصف الليل حضر أهل القتيل لقتل القاتل ولما وجدوا الشخص الراقد متدثرا بصورة لايظهرمعها وجهه ساورهم الشك فقالوا أن رجلا كمثل محمود على لا يمكن أن يغدر برجل استجار به ولابد أن هناك خديعة فسحبوا الغطاء عن الشخص الراقد بعد مجهود عنيف ليتبين لهم أنه احد ابناء محمود على فتركوه ورجعوا لمحمود على وقالوا له لقد عفونا عن القاتل لأنك فديته بابنك .

أن هذه القصة انما تدل على الوفاء الذى عرف به محمود على الذى ضرب أروع الأمثله لشيوخ العرب الذين يتمسكون بكلمتهم حتى الموت الشيء الذى دعا محمود يتمسك بوعده الذى قطعه للحكومة التركية ومن أجله حارب أخوانا له فى الوطن والدين . وقيلا أور لفظ بجاوى كذلك مكون من كلمتين « قيلا » و « أور » ومعناها قصير الاذنين وتطلق على حيوان شديد الشراسة ولقد عرف بهذا اللقب محمد آدم أركاب زعيم قبيلة الشاطراب وهى احدى فروع قبيلة الامارار ولقد اشتهر قيلا أور بالشجاعة والحكمة كما كان شاعرا فحلا سجل الكثير من حوادث الثورة المهدية فى شرق السودان بشعره.

ولقد كان له أكثر من موقف من الثورة المهدية فكان تارة معها وأخرى ضدها وله شعر فى كلا الموقفين عندما كان يقف ضدها كان يتساجل الشعر مع الشاعر موسى تفل (وهو من قبيلة الشعاياب وكان من أوائل مناصرى الثورة المهدية فى شرق السودان وقد ظل يساندها بسيفه وشعره ويسجل انتصاراتها شعرا ولقد حازت المساجلات الشعرية بينه وبين قيلا أور على اهتمام الناس فى ذلك العصر مما جعل الانجليز يعدمونه بعد القبض عليه بعد زوال دولة المهدية)

تزعم محمود على وقيلا أور مناهضة الثورة المهدية بشرق السودان وجمعوا ضدها المتخلفين من رجال القبائل .

وكان أول التحام لمحمود على بجيوش الأمير عثمان دقنه بعد واقعة سنكات الأولى . اذ حضر محمود على ومعه أربعمائة رجل لمساندة محمد بك توفيق قائد حامية سنكات كما قام محمود على بقيادة الحملة على الأمير عثمان دقنه فى منطقة قباب .

لقد كان وقوف قيلا أور مع الثورة المهدية فى شرق السودان عن عقيدة واقتناع ولكنه ثار ضدها بعد أن أعدم الأمير عثمان شقيق قيلا أور الذى اشترك فى قتل أحد الأنصار ولم يتمالك قيلا أور مشاعره فحكم عاطفة القرابة والدم فانفصل عن الثورة المهدية ووقف مع محمود على يقودان المتخلفين ويتلقيان العون والمساعدة من الأتراك والانجليز .

عندما أحكم الأمير عثمان دقنه الحصار على سواكن جمع محمود على بعضا من اتباعه بقرب سواكن فى بئر (تهشيم) وكان يرمى من ذلك منع الأمير عثمان من محاصرة سواكن . وفى يوم ١٢ مايو سنة١٨٨٤ أرسل محمود على بعضا من خيالته لمعسكر الأنصار ليلا فاطلقوا رصاصهم على الانصاركما قاموا بالقبض على سبعة من جنود الأمير عثمان وسلموهم للسلطات الانجليزية بسواكن .

أرسل الأمير عثمان الأمير على حامد على رأس ستمائة جندى الى اتباع محمود على يأمرهم بالتسليم وكان محمود على متغيبا بسواكن فارسل له اتباعه يخبرونه بقدوم الأنصار للحرب .

فما كان من محمود على الا أن أسرع من سواكن بعد أن جمع عددا كبيرا من الجنود الى بئر (تهشيم) وعند وصوله أمر اتباعه الذين كانوا حوالى ألف وخمسمائة بالهجوم على جنود الأمير على حامد والتحم الفريقان فقتل من اتباع محمود على ستة عشر رجلا

وجرح عدد آخر وهرب الباقون الى سواكن بما فيهم محمود على وغنم الانصار عددا كبيرا من المواشى وسبوا تسعة وأربعين أمرأة .

بعد هذه الواقعة أرسل الأمير عثمان الأمير على حامد الى بئر هندوب التى هى أقرب بئر لسواكن ليشدد الحصار على سواكن وادى هذا الحصار الى الاضرار بمصالح بعض القبائل المحيطة بسواكن والتى كانت تتاجر مع سواكن فى منتجاتها من المواشى والألبان وتجمع هؤلاء الأعراب وفيهم اتباع محمود على وقيلا أور وأرسلوا فرقة من الكشافة تبلغ ثلاثين شخصا والتقت هذه الفرقة بثلاثة كشافة للامير عثمان دقنه والتحموا بهم واستشهد اثنان من الأنصار ورجع الثالث لمعسكره كما قتل واحد من الأعراب .

وأخبر الانصارى الذى نجا من القتل الأمير على حامد بما حدث فأمر الأمير على حامد جنوده بالتحرك الى معسكر اتباع محمود على فى (دم) التى تقع قرب بورتسودان حاليا .

هجم الأمير على بجنوده على اتباع محمود على فقتلوا منهم اثنين وعشرين وغنموا منهم بعضا من الماشية كما سبوا أربعين امرأة . ولم يصب أى من جنود الأمير على بسوء . وحدثت هذه الواقعة يوم ٢٦ يونيو سنة ١٨٨٤ .

بعد أن أحكم جنود الأمير عثمان دقنه الحصار البرى على سواكن ومنعوا عنها المواد التموينية لجأ الانجليز الى المرأفىء البعيدة لجلب المواشى والمواد التموينية فما كان من الأمير عثمان ألا أن أرسل السرايا لمراقبة المرافىء . وفى يوم ١٠ يوليو ١٨٨٤ شاهدت سرية من جنود الأمير عثمان فى شيخ برغوث (بورتسودان حاليا) بعض الأعراب من اتباع محمود على يشحنون مواشيا فى احدى المراكب الشراعية فهجم عليهم جنود الأمير وقتلوا منهم خمسة واسروا سبعين ورجعوا بتلك المواشى من ابل وبقر وشاه .

تجمع اتباع محمود على بعد هذه الواقعة لأخذ ثارهم وعرف جنود الأمير عثمان بذلك فاستعدوا لهم وتوجهوا نحـوهم ولما دنوا منهم جاء مندوبون عنهم مستسلمين مطالبين البيعة والانضمام للفقيه أحمد القلهيابى فرجع عنهم جنود الأمير عثمان وانضم الاعراب لأحمد القلهيابى وكان على رأسهم قيلا أور وأبناء محمود على .

بعد هذه الحادثة تجمع بعض اتباع محمود على وقاموا بنهب مواشى اخوانهم الذين بايعوا المهدية وانضموا لأحمد ألقلهيابى فأمر ألأمير عثمان أحمد القلهيابى وابراهيم حمددو وبعض جنوده بالتوجه نحو الاعراب المجتمعين فان سلموا وبايعوا وردوا ما نهبوا من مواشى تركوهم والا فالحرب .

وعرف الاعراب هذا فارسلوا لمحمود على الذى كان بسواكن يستعجلونه الحضور ويخبرونه بما حدث فما كان منه الا أن اخبر الانجليز فى سواكن بما يدورفاعطوه مائتى بندقية وعشرين صندوقا من الذخائر وخمسين اردبا من الذرة وعينوا له سفينة تحمل محمود ومن معه فى مرسى الشيخ برغوث وتوجهوا من هنالك الى جبال منطقة أربعات.
كان معسكر جنود الأمير عثمان بجوار معسكر محمود على فتوجه الفقيه أحمد القلهيابى وابراهيم حمددو الى محمود على واتباعه ودعوهم للمهدية وأظهر محمود على واتباعه ميلا للمهدية خداعا منهم وتعطيلا للوقت ولما طلب منه الفقيه أحمد القلهيابى لم يمانع ولكنه طلب مهلة من الوقت .

كان محمود على اثناء هذه الفترة يحاول اقناع اصحابه الذين انضموا للمهدية بالرجوع اليه وكان يتصل بهم ليلا دون علم أحمد القلهيابى واستطاع محمود أن يقنع الجماعة المنضوية تحت لواء القلهيابى .

ابدى محمود على رغبته فى التوجه لمعسكر الأمير عثمان وسار مع القلهيابى مسافة من الطريق ثم أنسحب ليلا هو واصحابه والجماعة

التى كانت مؤيدة للمهدية من اتباعه وتوغلوا فى الجبال حتى وصلوا جبل (الراربدى) ورجع الفلهيابى وأخبر عثمان بذلك فارسل معه مددا بقيادة الامير على حامد وادريس سكر وحامد بن احمد دقنه والامين اسماعيل وسافر جيش الانصار حتى وصل معسكر محمود على فى منطقة آربعات يوم ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ ووجدوا محمود على قد تحصن بجبال اربعات الشاهقة على جانبى الطريق ولما راوا الانصار فتحوا فيهم نيران البنادق فاستشهد منهم ثمانية عشر وقتل من أتباع محمود ستين ومنهم على بن محمود على وانهزم محمود على وجماعته ورجع محمود على لسواكن وظل الانصار يتابعون فلول اتباعه وقتلوا منهم حوالى مائة وتوغلوا خلفهم فى الجبال حتى وصلوا منطقة (هييت) وهى قرب (أبوحمد) حيث ظفروا بمائة وعشرين من رؤسائهم وعادوا بهم للامير عثمان يوم ٢٢ اكتوبر ١٨٨٤ .

وفى نفس يوم واقعة أربعات أرسل الأمير سرية لمحاصرة مرسى الشيخ برغوث فوجدت السرية بعضا من جماعة محمود على الهاربين من مكان الموقعة باربعات وهم فى طريقهم الى سواكن عن طريق مرفأ الشيخ برغوث وهجمت عليهم السرية وقتلت منهم اثنين وعشرين واستشهد من الانصار ثلاثة من بينهم اميرهم محمد نور دقنه .

أستمر الامير فى ارسال السرايا لمحاصرة المرافىء لقطع المؤن عن سواكن وفى مرسى «درور» شمال بورتسودان » ظفرت احدى السرايا ببعض أتباع محمود على يهمون بشحن ماشية على ظهر سفينة على المرسى فهجموا عليهم وقتلوا خمسة واسروا سبعين وأخذوا الماشية التى كانت معهم .

بعد هذه الحوادث رجع قيلا اور وانضم للامير عثمان فجعله أميرا على قبيلته .

لم يستمر الوفاق بين الانجليز ومحمود على طويلا فلقد نشب خلاف بينه وبين كتشنر بسبب قرار كتشنر بارسال الاسيرات من نســاء جنود الأمير عثمان دقنه اللائى تم أخذهن فى واقعة تسلها الى مصر ولم يكن من محمود على الا أن عارض قرار كتشنر بعد أن وضح له ان الحرب قد صارت بين كفار ومسلمين فعدل كتشنر عن قراره بارسال الاسيرات لمصر امام تهديد محمود على وقام باعتقال محمود على لمدة اربعين يوما. ولم يكن من محمود على الا أن وجــه أبناءه بالانضمام للأمير عثمان دقنه الذى استقبلهم بضرب النحاس فى تسلها وجعلهم قادة للدفاع عن ساحل البحر الاحمر مع أخوانهم من أبناء الامارار وبقية البجة وذلك بعد نقل الامير لمعسكره من تسلها الى اداراما . وهكذا تم اتحاد جميع قبائل البجة تحت قيادة الامير عثمان دقنه للدفاع عن شرق الســودان وللحفاظ على استقلال السودان فى ظل الثورة المهدية وتوفى محمــود على سنة ١٨٨٩ .

الفصل الثالث عشر

الغزو البريطانى

فتح طوكر

رأت الحكومة الانجليزية أنه لابد من احتـــلال طوكر حتى تستطيع تأمين موقف سواكن وبعد مشاورات بين القاهرة ولنـــدن استقر الرأى على فتح طوكر فبدأت الاستعدادات ووصول تعزيزات لحماية سواكن .

كانت الخطوة الاولى فى الطريق لفتح طوكر هى قيام الكولونيل هولد سميث محامية سواكن بالهجوم على معسكرات جنود الأمير القريبة من سواكن فقـــام هولد سميث بالهجوم على معسكر الامير فى هنـــدوب فى ٢٧ يناير ١٨٩١ وكان فيها نحو مائة رجل بقيادة الامير محمد آدم سعدون الذى خسر المعركة واســـتطاع هولد سميث الاســـتيلاء على هندوب . وفى ٢ فبراير ١٨٩١ هجم جنود هـــولد سميث على تاماى التى كان فيهـــا خمسين رجلا بقيادة الشريف قبســـه فأسروا الشريف وهزموا أصحابه .

بعد هذه الحوادث أستطاعت سواكن أن تستنشق الهواء بعض ألشىء بعد أن كانت تعانى من حصـــــار شديد وفى ٨ فبراير ١٨٩١ اســـتطاع هولد سميث الاســـتيلاء على ترنكيتات وكان الامير عثمان ملما بكل تحركات العدو الانجليزى واستعد لاسترجاع هندوب ولكنه عرف مخطط الانجليز بالهجوم على طوكر وكان فى هـــذا الوقت فى أراضى الحباب واتنهز الانجليز فرصة غيابه للهجوم على طوكر .

كانت طوكر تحت حراسة خمسمائة من الانصار بقيـادة محمد طاهر المجـدوب الذى ارســل للامير عثمان يخبره بنزول قوات انجليزية بترنكتات . وكان فى هذا الوقت الامير عثمان يتقدم لاسترجاع هندوب التى تراجع عنها الجنود الانجليز لتدعيم حملة فتح طوكر .

أرسلت انجلترا قوات اضافية لمساعدة هولد سميث فى فتح طوكر. تحركت هـذه القوات بحرا من مصر الى سواكن بقيـادة أللواء أستيل والكولونيــل ونجت ونعوم شقير وملحم بك شكور فدخلوا سواكن فى ١٤ فبراير ١٨٩١ ووجـدوا هولد سميث قد سبقهم الى ترنكتات فلحقوه فى اليوم التالى وفى صباح ١٦ فبراير١٨٩١ أبقى هولد سميث فى مرسى ترنكتات قوة من العساكر وسار نحو ساعة فأقام مخزنا للماء حصنه بمدفعين وبعض العساكر قاصـدا التيب بالقوة الاتية ٨٥ ضابطا وألف ومائة وستين جنديا ومائة وواحد وخمسين جوادا ومائة وخمسة وتسعين جملا وثلاثين بغلا وستة واربعين حمارا وقبل وصولهم الى التيب بقليل رأوا عظام القتلى قدانتشرت لتخبرهم أنهم فى ميدان واقعةبيكر فوجدوا الآبار مسدودة فقام الجيش بحفرها وأخذو منهـا كفايتهم من المـاء وبات الجيش فى مكانه وفى فجر اليوم التالى ثارت زوبعة رملية شديدة غطت الطرق بغبـار كثيف وباتوا فى مكانهمكذلك ليلة أخرى .

هذا وقد كان الأمير عثمان دقنه قد عاد الى طوكر فى ١٦ فبراير ١٨٩١ الى معسكره (بعفافيت) بجـوار طوكر وحال وصوله ضرب نحـاس الحرب وتجمع عنده ٦٠٣٠ مقاتلا وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب والدرق وعلى رأسهم الأمير الشايب أحمد والشريف حمد النيل وعلى الفرسان الأمير عثمان ثائب .

وفى فجـر ١٩ فبراير ترك هولد سـميث فى التيب مدفعين وخمسين رجلا وبعض الجنود وسار بالجيش الى طوكر تتقـدمه السـوارى

والكولونيل ونجت الذى التقى بطلائع الأنصار عند خرائب طوكر القديمة فاشتبك معهم . وتراجع ليحث الجيش على الاسراع وأحتلال خرائب طوكر والامتناع بها قبل وصول الانصار فأسرع الجيش حتى وصلها الساعة ١٠ صباحا فاتخذ من جدرانها متاريسا . هاجم الأنصار الجيش الانجليزى الذى صب عليهم الرصاص كالمطر وتبادل الفريقان النار . وهجم الأمير عثمان تايب واخترق صفوف ألعدو ولما قتل فرسة من تحته هجم راجلا وبيده الحربة وهو ينادى (اين الملعون كبيرهم) فتصدى له الكابتن ميتشل قمندان الحملة ورماه برصاص مسدسه فاحتمل الضربة وظل مهاجما يريد قتل ميشيل ولكنه سقط شهيدا قبل أن يصل ميشيل .

استمرت الواقعة ساعة ونصف انجلت عن تراجع ألامير عثمان دقنه وانصاره فمروا بمعسكرهم واخذوا نسائهم وساروا جنوبا ثم أقتسموا فريقين فريق انضم للامير الشايب وفريق بقى مع الأمير عثمان فنزل فى (ادارا ما) .

بعد سقوط طوكر فى يد الانجليز أرسل الخليفة تعليماته للامير عثمان مع محمد خالد زقل لنقل معسكرهم الى (ادارا ما) وعدم الاشتباك مع القوات الانجليزية فى أى معركة سافرة وكان الخليفة قد شعر بتوجيه بريطانيا لكل قوتها لشرق السودان كما أراد أستدراج الجنود ألانجليز للجبال حيث يستطيع استعمال حرب العصابات ضدهم .

سافر الامير عثمان الى أم درمان وتناقش مع الخليفة حول الموقف فى شرق السودان ثم رجع الى مقر قيادته فى (ادارا ما) .

استطاع الامير عثمان انشاء مدينة صغيرة فى (ادارأما) كانت مبانيها من اللبن . فشيد جامعا ومنازل للأمراء كما أقام ثكنات للجنود منازل لهم .

أستقر الأميرعثمان فى ادارا ما فنظم أعماله الاداريةكما قام بارسال

الحملات من وقت لآخر على معسكرات الانجليز على طول امتداد ساحل البحـــر الأحمـــر وكانت آكثر حملاته تأثيرا هى الجردة التى هاجمت الانجليز فى طوكر سنة ١٨٩٥ حيث كبدتهم خسائر فادحة فى الارواح .

تنيجة لحمــــلات الامير عثمان على الانجليز تحركت قوات انجليزية فى أبريل١٨٩٦ مكونه من فرقتين تحركت احداهما منسواكن والأخرى من طوكر والتحمتا مع قوات الأمير عند خورونترى حيث كبدهم الأمير خسائر فادحة وهربت فرقة الخيالة الانجليزية قبل الاشتراك فى المعركة .

حمـــلة النيـــل :

أقرت الحكومة البريطانية فى ١٢ مارس ١٨٩٦ احتلال السودان وبدأت قواتها تتوغل فى الأراضى السودانية من الشمال على امتداد مجـــرى النيـــــــل .

بعد توغل القوات الانجليزية فى الاراضى ألسودانيـــــة أرســـــــل الخليفة يطلب من الأمير عثمان الحضـــور الى أم درمان حيث أمره الخليفة بحماية شلالات السبلوقة .

وبعد شهرين أرسل له الخليفة أوامره بالتوجه للانضمام لقوات الامير محمود ود احمد .

واقعـــة النخيـــلة :

خرج محمود ود احمد بجيشه من المتمة فى ٢٠ فبراير ١٨٩٨ قاصدا بربر لاستعادتها وكان يعاونه فى القيادة الامير عثمان وظهر خطأ الخليفة عبد الله فى هذه القيادة التى سلمها لشـــاب غير مجرب وجعل الأمير عثمان بخبرته الطويلة فى قتال الانجليز مســـاعدا له واختلف القائدان الشاب والمجرب فى الخطة الحربية التى يجب أن تتخذ وأصر الامير عثمان على الابتعاد عن النيل لتفادى البواخر ولتطويق الجيش بحركة التفاف من خلفه حينتقدمه ومصادمته بعيدا عنضفاف النيل حتى لايجد عونا

من البواخر . ولما اختلف القائدان أرجعا الامر الى الخليفة فوافق على خطة الامير عثمان الذى كان يرى أن يطوق جيش كتشنر فيهجم عليه هو ومحمود بجيشهما من الخلف بينما يتقدم الخليفة بجيشه من أم درمان لقرية محمد الامام ولكن الخليفة رأى الانتظار بالعاصمة فلم يعمل بالجزء الثانى من الخطة .

نزل هذا الجيش على مسافة ٣٠٠ ميل من النيل وفيه ٢٠ ألف مقاتل و ٨ ألف بندقية وفى واقعة النخيلة على نهر عطبرة التقى السردار بالجيوش السودانية تحت قيادة محمود ود أحمد . وكان الامير عثمان قد أمر الانصار بحفر خندق ليقفوا فيه وعدم الخروج منه وبعد معركة حامية استعمل فيها الغزاة قنابل ومدافع ورصاص الرشاشات انكسر الانصار ووقع محمود أسيرا بعد أن قتل من رجاله ٣ ألف وبلغت خسارة الجيش الفاتح ٥٥٢ بين قتيل وجريح .

وبعد انتهاء الواقعة أقام الامير عثمان على بعد ساعتين من ميدان المعركة حيث تجمع لديه الاحياء من جيشه وجيش محمود ود أحمد وسار بهم نحو (اداراما) حيث توقفوا برهة قصيرة واتجه نحو أبو دليق ومنها الى القضارف ومكث الامير شهرا بالقضارف ثم سافر منها لرفاعة لزيارة صديقه الطيب السواكنى وبعد فترة قصيرة أرسل الخليفة فى طلبه للاشتراك فى المعركة الفاصلة مع قوات الغزو .

وصل الامير أم درمان حيث استقبله الخليفة أحسن استقبال وقام الامير بالقاء خطبة نارية على حشود قوات الخليفة .

استعد الخليفه عبد الله للقاء جيش كتشنر فى كررى وقام بتوزيع المهام على قواده . وكانت مهمة الامير عثمان دقنه التى أوكلها اليه الخليفة هى حراسة طريق الانسحاب لأم درمان ولكنه نظم صفوفه

بسرعة وأخذ فى استغلال واجبه لأبعد مدى ممكن على الرغم من أنه افتقد أحسن معاونيه ولم يبق معه الا ابراهيم سعيد . فتقدم الامير عثمان دقنه برجاله نحو سركاب واختار بقعة كبيرة من خور أبو سنط وهى تبعد قليلا من النيل . ثم جعل حملة البنادق يصطفون على الضفة الشمالية خارج الخور وقوفا بحيث يبرزون كهدف من مسافة بعيدة وأمر الباقين بالجلوس على الأرض ووضع كل منهم سيفه وسكينه المعقوفة بالقرب منهم . واستمر السكون حتى الساعة الثامنة والنصف حين قطعته ضجة طلائع ربع التعزيز ثم أسرع الامير عثمان باعادة تنظيمهم . ففصل حملة البنادق وضمهم الى بنادقه فى أعلا وضم حملة السلاح الابيض الى رجاله قعودا على الارض .

كان الخليفة كثير الاهتمام بالمعركة المرتقبه فتخلى عن موقع رئاسته الآمن وتقدم للاشراف على المعركة. فلما وصل الخليفة مباشرة بعد ربع التعزيز أسرع الامير عثمان دقنه لاستقباله ونقل الخليفة للامير عثمان ما شاهده من تقدم فرسان العدو . فعاد الامير عثمان لتنظيم قوته .

كان كتشنر يتوق للوصول الى أم درمان واحتلالها قبل الخليفة بل كان مستعدا للمخاطرة ولقد كان رد السردار (تقدم ونظف الطريق من اليسار ــ طريق النيل وبذل كل جهد لمنع العدو من العودة لأم درمان) لم يتقدم الكولونيل مارتن نحو النيل لفتح الطريق لتقدم المشاة ولكنه انحدر بهم شرقا فى اتجاه النهر باتجاه مائل قليلا لجهة الجنوب . الى أن حازى خور أبو سنط الذى وقف حملة بنادق الانصار فى أعلاه وبداوا يطلقون النيران على الكتيبة .

كان ابراهيم سعيد هو قائد حملة البنادق من جنود الامير عثمان دقنه وكانوا يقفون على أقدامهم خارج الخور. أما داخل الخور فكانت صفوف حملة السلاح الابيض وعندما اكتملت التنظيمات النهائية

لكمين الرماحة وكان أكثر من الفين مقاتل يجلسون على الارض وارتفعت أسنة حرابهم الى أعلا ، وقف بعد ذلك الأمير عثمان فيهم خطيبا مذكرا اياهم أن المهم هو انزال ألعدو من خيولهم حتى يترجلوا على الارض ، ويمكن بعدها احداث الخسائر لأنه اذا فقد ألعدو الراكب خيوله وترجل فرسانه كان سهلا بعد ذلك ابادته . ثم أشار الأمير عثمان بيده لحملة البنادق لفتح نيرانهم . فبدأ فرسان العدو يتساقطون واحدا بعد الآخر وذلك لأن الهدف كان واضحا علاوة على قرب المدى ثم أشار بيده الى حملة البنادق لايقاف الضرب خشية أن يتقدم العدو مباشرة نحوه أو يلتفون حوله . وعندما اكتملت صفوف العدو واندفعوا فى هجمتهم السريعة أمر الأمير عثمان دقنه رجاله بالنهوض استعدادا لملاقاتهم فغرز فرسان الرماحة مهاميزهم فى الجياد واندفعوا نحو الأنصار مشرعين رماحهم الطويلة أمامهم واضطر صف البنادق من رجال الامير عثمان دقنه الى التقدم . ومنهم من رقد على ظهره فى الارض وقد رفع حربته وسيفه فى الهواء لتبتر كل من يمر فوقه ومنهم من وقف مشرعا سيفه لينزل على أول جسم يصطدم به .

وبعد أن تناقصت المسافة الفاصلة بين القوتين جاء الاصطدام المروع • ثلاثون ثانية كانت المعركة قد وصات قمتها ، فتعالت الأصوات سقوط الحديد على الحديد وسيوف البجه مع حراب الرماحة الطويلة ، فلم يعد أى مجال لاستخدام البنادق وما ارتفع ساعد ليصوب الا وبتر وتنزل السيوف لتبتر كل ما يقابلها .

دامت المعركة الدموية الهائلة مائه ثانيه ، ولقد قاتل رجال الامير عثمان دقنه بشجاعة وعزيمة الامر الذى مكنهم من الامساك بخناق العدو واقتلاع النصر منه ، وعاد الامير عثمان دقنه مرة أخرى وسط

رجاله ليعيد تنظيمهم بنفس الترتيب السابق ولكن عندما حاول الكولونيل مارتن الالتفاف حول جنود الامير عثمان دقنه أسرع الامير عثمان فأعاد مواجهته واستمر اطلاق النار بضع دقائق ولقد أصبح الحل الوحيد أمام الامير عثمان هو الالتحام مع العدو بسرعة وعدم التعرض من مسافة بعيدة لنيران مدفعيته وبعد أن ضمن جذب عدوه أعدالعنصر الاول من المفاجأة يكون فيه المظهر غير المخبر أى الظهور بمظهر يختلف عن الحقيقة ووجد العدو نفسه غارقا وسط خضم بشرى مسلح يزيد على الالفين . أما العنصر الثانى من المفاجأة فهو السرعة أى سرعة توجيه الضربة القاضية .

لقد كان الأمير عثمان رائعا سواء فى تخطيطه للمعركة أو فى ادارتها أثناء اشتعالها بارعا فى جذب العدو نحوه واغرائهم بالهجوم . وكان كذلك معلما فى توجيه الضربات للخيل وحكيما فى رفضه لمطاردة عدو راكب .

انتهت معركة كررى بانكسار جيش الخليفة أمام الفاتح البريطانى وبعد أن ضرب كل فرد من جيش الخليفة أروع الامثلة فى البطولة والتضحية واحتقار الموت . ولم يكن أمام الخليفة الا التراجع نحو الغرب والاستعداد لمواصلة النضال لتحرير البلاد وأجلاء المستعمر الغاصب عنها .

الفصل الرابع عشر

أسر الأمير

حاول الخليفة أن يجند رجالا من غرب السودان لمواصلة الكفاح ضد الغزاة ولحق به الأمير عثمان دقنه بعد موقعةكررى بمن معه من رجال وانضم اليه أحمد فضيل بعد انسحابه من القضارف تحت وطأة الهجوم المصرى الانجليزى عليه وكان مع الخليفة عبد الله جماعة فيهم الخليفة على ودحلو وانطلقوا جميعا بمن معهم من مقاتلين ونساء نحو أم درمان لملاقاة اعدائهم ولكن العدو كان لهم بالمرصاد مقتفيا آثارهم وعندما بلغوا قرية جديد بدأت قوات الغزو بقيادة السير ونجت بضرب المجاهدين السودانيين برصاص المدافع الرشاشة حتى حصدتهم وقبل واقعة الجديد بيومين لسعت حية الشيخ محمد بن الشيخ الطاهر المجذوب فانتظر الأمير ليبقى بجواره ولم يحضر استشهاد الخليفة عبد الله وأصحابه فاوصى أصحابه أهل الشرق فركبوا باخرة من جهة الدويم الى رفاعه ثم البطانة ثم حمرى اما الأمير عثمان فقد تنكر الا من اخصائه ومكث مع صديقة الطيب السواكنى فى رفاعة لمدة أسبوع ثم سافر لحمرى فاقام فيها أياما والحكومة جادة فى طلبه ثم بارحها ومعه شبابا من ارتيقة باعثمان انسمة الشيخ أحمد أبو طاهر فلما وصل (أودى) أرض الهاكولاب قام معه شاب هاكولابى اسمه الشيخ أحمد ابراهيم عبد الله أوصله الى جبل أوربا عند قبيلة الجميلاب وكانت الحكومة مهتمة بتحركاته فارسل الى الارتيقة بطوكوكى يرحلوه الى الحجاز فاعدوا سنبوكا فى ترنكتات وآخر فى هيدوب وثالث فى شمال

العقيق أعده الشيخ ضرار على ضرار والشيخ أكد موسى ولكن خبر وجود الأمير فى آوربا انتشر وسمعه الكثيرون خصوصا الخليفة الأمين أدروب الذى ابلغ النبأ للخليفة الصادق الارتيقى وهذا بدوره آخبر محمد بك أحمد مأمور سواكن الذى جاء إلى محل وجود الأمير فجأة ومعه قوة من البوليس والضابط برجس فالقوا القبض على الأمير بينما كان يرتل القران وتحققوا من شخصيته من خلال آثار الضربات التى أصيب بها فى معركة سنكات الأولى ونقل الأمير مثقلا بالحديد الى سواكن حيث أعتقل سنة ١٩٠٠ ومنها نقل الرشيد ثم دمياط ثم أعيد لوادى حلفا سنة ١٩١٥.

وأدى فريضة الحج سنة ١٩٣٥ وتوفى فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦ ثم نقل جثمانه الطاهر الى أركويت سنة ١٩٦٤ بعد غرق مدينة وادى حلفا .

الفصل الخامس عشر

شخصيته

كان الأمير عثمان دقنه طويل القامة يميل الى الربعة قوى البنيان أسمر اللون عربى الملامح ، دقيق التقاطيع اقنى الأنف كثيف شعر الحاجبين واللحية تغضن جبهته حين يغضب .

ولقد ولد الأمير عثمان ونشأ بمدينة سواكن التى كانت مزدهرة فى ذلك الوقت وقد صب فيها ممتاز باشا خلاصة الفنون المعمارية كما انها كانت قصبة تجارية رائجة على مستوى العالم حيث كان يؤمها الناس من كل انحاء المعمورة ، فاجتمع فيها التجار والعلماء والفقهاء وزهت حضارتها وشمخت بعلمها ونهل اهلها من العلم والحضارة قدرا كبيرا .

كانت اسرة الأمير عثمان دقنه قد اشتهرت بحرفة التجارة التى هاجر جدهم عبد الله التركى بها من الأسكندرية ونشأت العائلة من بعده متبعة مسيرته كما تفقه أهله فى علوم الدين واللغة حفاظا على دينهم وتراثهم . فى هذا الوسط نشأ الأمير نشأة جادة فقد كان يقسم وقته بين العلم والعمل فى التجارة التى جعلته يزور بلادا مختلفة . فتفتحت افاقه وزادت معرفته فاجتمع لديه العلم بما قاله من تعليم دينى ولغوى والتجارب بما خبره من اسفار التجارة . كانت اسرته العباسية الأصل متحفظة فى حياتها ولم تكن تستكن للاستعمار ولم تهاونه بل جاهرت بعدائها له ولقد عرف الأمير منذ طفولته الباكرة بقوة الشخصية والميل للزعامة حتى لقب

(بعثمان هدأ) (وهدأ) هــذه معناها « الزعيم » اذ كان يتزعم الأطفال فى طفولته وظل كذلك طيلة حيــاته متقدما فى كل عمــل يمارسه ولم يكن يرضى بأن يكون تابعا لا رأى له •

فهل من كل العلوم التى كانت موجودة فى عصره فى سواكن ولم يقف طموحة عند هذا الحد بل شـــد الرحال لليمن حيث درس فى مدينة (موخا) ونال شهادة العالمية ورجع لسواكن لينهل من علوم الفقة وتبحر فى المذهبين الشافعي والحنفىكما تبحر فى علوم النحو والتوحيد ودرس علم (الزايرجة) الذى هو ضرب من (التنجيم) ولقد جعلته اجادته للغة العربية والدين خطيبا بليغا ومتحدثا فطنا لا يمله السامرون •

لم يكن الأمير عثمان مثل بقية النــاس لانه كان عبقــريا وكان عظيما فى حبه لوطنه وترابه خلق الله له نفسا مختلفة عن نفوس الناس حتى انها لتجد المتعة واللذة فيما يراهكثير من الناس منتهى الالم والعذاب •

فلو اراد أن يعيش عزيزا مكرما بل وزعيما فى قــومه لامكنه ذلك بمهادنته للاســتعمار الذى بذل له الوعود البراقة المرة تلو المرة ولكنه كان صاحب مبدأ وعقيدة ولم يرد سوى نصرة الدين وطرد المستعمر الغاشم من أرض الوطن وحتى بعد أن انكسرت جيوشه ووقع فى الأسر وظل أســيرا فى ايدى اعدائه لمدة ست وعشرين عاما فانه ظليرفض حتى الرمق الأخيرمن حياته الاعتراف بشرعية الحكم القائم أو يبــايعه ولو أنه فعل ذلك لعاد أميرا على الشرق وسافر الى بريطانيا ليمنح لقب (سير) •

ولكنه فى عظمته آثران يبقى أسيرا ويقضى باقىعمره فى غياهب

السجون على مهادته العدو ، وعلى أن يعطيه ولاءه ومحبته ولما يئس عدوه من أن ينال منعظمته لجأ ذلك العدو الىأحط الأساليب وأدناها للنيل منه والتشكيك فى أصله فزعم أنه ليس سودانيا ثم زعم انه لم يكن يحارب من أجل عقيدة بل انتقاما من الانجليز الذين حاربوه فى رزقه ثم شتتوا أهله ويكفى لنفى افترائهم هذا ما عرضوه عليه بارجاع ما فقده من أموال وممتلكات فكان رده عليهم بأنه خرج مجاهدا فى سبيل الله ولقد عرض عليه نيازى باشا نظارة عموم قبائل شرق السودان فرفضها كذلك فى اباء وشمم .

أما عن عقيدته الدينية فيكفى أنها حركته فى زمان لم تكن فيه طائرات ولا سيارات ليقطع الصحارى فى البحر الأحمر فى أقصى الشرق الى (الأبيض) فى أقصى الغرب ليقابل الامام المهدى ، وكيف تخلف بعض من مرافقيه فى بربر بعد أن اضناهم التعب .

ولقد سافر للامام المهدى بمحض ارادته واختياره بلا دعوة واستمر مؤمنا بالدعوة حتى انه عندما سئل وهو فى الحبس ان كان لا يزال يؤمن بالدعوة المهدية ، اجابهم بأنه يموت على اعتقاده هذا .

لقد مكث الأمير عثمان ست وعشرين عاما فى الأسر وكان اثنائها وحيدا منفردا معزولا عن غيره ، وكثيرا ما كان يمتنع عن الكلام لفترات طويلة بل ويمتنع أحيانا عن الأكل .

ونحن نعرف أن الحبس الانفرادى هو امر أنواع الحبس وتيجته الحتمية الانهيار العصبى بل الجنون ، وقليل من الناس يستطيع

احتماله لأكثر من فترة قصيرة جدا أما الصبر عليه لمدة ربع قرن من الزمان فهو أمر لايقدر عليه الاصاحب عقيدة راسخة وايمان قوى ولقد تحلى الأمير عثمان دقنه بهذه الصفات كلها مصحوبة بمقدرة عظيمة على تحمل التعب والارهاق الجسـماني • وأكبر دليل على ذلك اسفاره الطويلة الكثيرة لكأن الأرض كانت تطوى تحت قدميه اذ لم تكن المسافات تعنى شيئا فى نظرة •

لقد حارب الأمير عثمان جيوش الأمبراطورية البريطانية وهى فى أوج مجدها (عندما لم تكن تغرب الشمس عن أرضها) ولقد حشدت له الجيوش الجرارة التى جاؤا بهـا من مختلف بقـاع الأرض وعلى رأس كل منهـا قائد من العظماء الذين تخرجـوا فى أرقى الكليات الحربية والعسكرية وجنود مسلحون بأحـدث الأسـلحة النارية الفتـاكة فوقف الأمير عثمان فى وجـه كل هؤلاء وحـده القائد والرأس المدبر لجيوشه التى استطاعت بأسلحتها البدائية وايمانها الراسخ أن تقهر العدو وتزلزل الأرض من تحته وتستولى على سلاحه وتردله كيده فى نحره •

لم يتقن الأمير واتباعه فن القتال وحده بل اتقنوا أساليبكثيرة وسبقوا اليها العالم بعشرات السنين ففى فن الاستخبارات كان الأمير يعرف دائما ما يجرى داخل أسوار سـواكن وخارجها على السواء كما كان دائم العـلم بتحـركات العـدو والامدادات التى تصله أوتغادره وكذلككان يعلم بارسال الجواسيس والخونة الى الجبال لبث الدعاية ضده وكان يرسـل التقـارير للامام أولا بأول عن كل ما يحدث •

(ظهر الأمير فى ميدان الحروب كصاحب مدرسة خاصـة تميزة عن غيره من القادة ولقد عرف الأمير بأن عمليات انسحابه كلها كانت

ناجحة وهي أشق وأقصى العمليات كما هي الاختبار الحقيقي للقادة حيث تتم في ظروف عصيبة . فلا ذكريات المعركة الخاسرة ولا المواقف أو مجرى الأحداث يساعدان على أتمامه بقوة متماسكة لم تفقد بعد مواصفاتها القتالية . وتلك كانت عظمة الأمير فان كان اختراقه للمربعات الانجليزية عظيما فقد كان انسحابه ومواصلته الكفاح في مكان آخر اجدى وأعظم . ولقد كان يترك أرض المعركة ليقاتل ثانيا ولولا ذلك لاباد جيشه في المعركة الأولى ولما خاض عشرين معركة انتصر في ثمان منها وانكسر في ثمان أخرى ولو ظل في الميدان للنهاية حتى بعد وثوقه من فقدان المعركة لما حقق اهدافه على المدى الطويل .

ولقد ظل هذا التصميم الفولاذى يلازمه حتى مماته = فمجرد ذكر أسماء مواقعه يثبت ذلك فهنالك واقعة (التيب) الأولى والثانية والثالثة وواقعة (تاماى) الأولى والثانية والثالثة ولقد شهدته هذه البقاع منتصرا بعد ابادة عدوه ، كما شهدته متقهقرا بعد هزائم مرة ولكنها لم تشهده ابدا يائسا أو متخاذلا .

والواضح أن الأمير كان مدركا لعوامل الحرب النفسية وأساليب استخدامها واستطاع أن يستغلها لأقصى درجة فعندما كان جنوده من البجة يضيقون ذرعا من الانهاك والتعب لمعاركهم المتصلة وحركتهم الدائبة ويؤثر ذلك في معنوياتهم كان يشيع أن الانجليز قد فروا وعندما رجع بقايا جنود جراهام الى مصر فقد كان يعلم جيدا أن الانجليز لايستطيعون المكث طويلا في سواكن . ومن ثم يلتهب الحماس في جنوده مرة أخرى فيعيد تنظيمهم ويعاودون القتال بروح عالية وحماس منقطع النظير .

عرف الأمير بشدة ايمانه بأهداف الثورة المهدية وبخلقه

ألعسكرى الأصيل يبدى طاعة حرفية لأوامر المهدى والخليفه ولكن طاعته تلك لم تمنعــه من ابداء رأيه عنــدما يرى خللا فى آوامر الخليفة ، فقد اعتذر عن تولى امارة دنقلا بعد وفاة ود النجــومى فقد قدر الموقف جيدا وادرك أن المكان ليس مكانه ولايســتطيع العيش فى جو الشمال المشحون بالخــلافات وهو الذى اعتــاد أن يعطيه رجاله فى الشرق طاعة عمياء ، كما خشى على جبهة سواكن المتوترةمن الانهيار •فلن يستطيع أحد غيره التعامل مع البجه صعاب المراس • كما تمرد على محمود ود أحمد عندما طلب منه الانضمام له فى عطبره ولم ينضم اليه الا بعد أن وصلته أوامر الخليفة شخصيا كما كان اعتزازه بنفسه ومكانته واضحا فلم يعترف برئاسة محمود عليــه حتى اللحظة الأخيرة والأمير عثمان هو صــاحب مدرســة (الاختراق من مؤخرة العدو) ويعود نجاحه الى بعد نظره وتكتيكه الذى فاق تصور اعــدائه من الأوربيين أو غيــرهم عنــدما كانوا يشكلون قوتهم فى مربعات هائلة للتقدم والدفاع • وادرك نقــاط الضعف والقوة فى ذلك التشكيل فهو يؤمن نيرانا أمامية وجانبيه لتكسر هجمات العدو المباشرة مهما كانت قــوية ولــكن ضــعف المواجهات والاضلاع سهل اختراقها لهذا لم يعرض قواته لنيرانهم فى صفوف تغطى واجهة العدو •

ولكن ادراكه لحقيقة أخرى كان أعظم أثرا وهو الضعف الكامن فى الصف الخلفى للمربع فعندما يوجه ضربته الأولى القريبة للضلع الخلفى ويخترقه يضع العدو فى موضع عصيب فهو أولا يجعل عدوه بين نارين من الخلف والأمام وسرعان ما تنهار الاضلاع الجــانبيه وتظل حائرة • هل تعكس مواجهتها وتوجه نيرانهــا الى داخــل المربع أو تسارع وتنضم الى الضلع الأمامى • كما كان خرقه للضلع الخلفى أسرع طريقا لوسط المربع الذى تجتمع فيه الدواب والأفراد

الاداريين فتموج الحيوانات بما عليها من اثقال وتنطلق صائحة فى كل الاتجاهات وهنا يفقد القائد سيطرته على قوته ، عدا الضلع الأمامى الذى يوجه له الأمير فى اللحظات الأولى من المعركة جزءا صغيرا من قوته ويلتفت هؤلاء ليجدوا أنفسهم وحيدين فى صف لاعمق له ولا حماية لجانبه • وعند حدوث هذا الارتباك تفقد القوة تشكيلها وترابطها وتنقسم الى مجموعات صغيرة يسهل على جنود الأمير التهامها واحدة تلو الأخرى •

ولقد كانت تاكتيكاته تتناسب مع نوع معين من الأرض ولظروف معينة فهى مؤثرة وفعاله مع القوة المتقدمه وليس للنقاط الدفاعية التى تدافع دفاعا حوليا وكان الأمير يختار الزمن المناسب للاقتحام اثناء تقدم العدو فلم يكن يهجم فى زمن توقف العدو بحيث جرت عادة هؤلاء ببناء زريبة حول المعسكر بل كان يهاجم اثناء خروج العدو من تحصيناته • ثم أن طبيعة الأرض كانت مثالية لتطبيقه لخططه • فجبال البحر الأحمر وممراتها الوعره الضيقة كانت تمكنه من تحقيق المفاجأة اللازمة لنجاح انقضاضه وزعزعة صفوف اعدائه فى مدة قصيرة من ظهور قواته أمام قوات العدو الذى لم يكن يمكن الأعداء من تنظيم صفوفهم أو تغيير مواجهتهم وقد كان من العسير عليه تطبيق هذا التاكتيك فى أرض مكشوفة •

دافع البريطانيون أنفسهم عن سواكن لحساسية موقعها مما جعل الأمير فى مواجهة مع أغلب قادة العهد الفكتورى وأشهر رجالهم مثل (جراهام — وكتشز — وماكنيل — وودهاوس) مما أدى الى اكتسابه خبرة مثالية مستمدة من القتال المتصل مع هؤلاء القادة الأكفاء

وجيوشهم المدربة القوية فكان بذلك القائد الوحيد المتبقى فى جيش الخليفة الذى لم يعانى من التخلف العسكرى الذى عانى منـه أغلب القـــادة فى (كررى) •

لقد عرف الأمير عثمان (الحرب الخاطفة) قبـــل أن يمارسهـــا (هتلر) فكان دائما المهاجم وليس المدافع ، وكان يحـدد هو وقت المعركة وسلاحها ، كما عرف حرب العصـــابات قبـــل أن يمارسها (الفيتناميون) أو المــاوماو فكان يرسل رجاله فرادى وفى مجموعات صغيرة ليقلقوا راحة العدو فى معسكراته ولايتركونه ينعم بأى راحة حيث كان القناصة يترصدون كل من يظهر من خلال فتحات السور ويطلقون عليه الرصاص حتى ضج الجنود ونصبوا بدلا عنهم تماثيل من الخشب على صورة جنود كشفها جنود الأمير بعـــد أن أطلقوا عليها الرصاص ولم تتحرك •

كذلك أرهق القناصة التابعون للامير الجنـــود الذين كانوا على السفن وأجبروهم على النوم داخل البواخر الرطبة وكلمـا فتح أحدهم نافذة أو ظهر على السطح اصابه رصاص القناصة فأودى بحياته ، وترك معظم الجنود سوأكن لحرارة الجو والأرق •

ولقد كان الأمير عسكريا بفطرته فلقد قام بقطع خطوط مواصلات العدو وخطوط تموينه عندما كان يقوم بحصار المدن فكان ينصب الكمائن فى المضائق والممرات الجبلية الوعرة . وخير مثـــال ذلك الكمينين اللذين نصبهما الأمير فى خورأبنت وخورأبى سنط للخيـالة الانجليز فى معركة كررى • وهو أول كمين فى تاريخ الســودان الحديث يطبق فيــه التــاكتيك العســكرى الأصيل حسب النظم العسكرية الحديثة المتبعة . اذ استطاع جنود الأمير تـكبيد العـدو خسائر فادحة فى الأرواح زائدا الصدمة القـوية التى تلقـاها جنود

العدو حيث فشلوا فى الوصول الى أم درمان أو قطع الطريق على جيوش الخليفة عبد الله .

قسم الأمير اتباعه من القناصه والمحاصرين الى مجموعات بعضها بالنهار والأخر بالليل حتى لا يجد العدو فرصة للراحة أو الاستقرار. وبالغ الانجليز فى تحصيناتهم فبنوا القلاع خارج السور وعلى مسافات متفاوته منه لتنبيههم فى حالة غارات اتباع الأمير.وأطلق الانجليز كشافاتهم لتضىء خارج الأسوار بالليل خوفا من الهجمات الليلية . ولم تقتصر هجمات جنود الأمير على القناصة بل أرسل الفدائيين وفرق الانتحار التى كانت تشكل قلقا نفسيا خطيرا أرهق أعصاب الجنود فهبطت معنوياتهم . فكان الفدائيون يتسللون فى الظلام وهم عراة بعد أن يطلوا أجسامهم بالدهن فى أفراد وجماعات صغيرة يزحفون على الأرض مثل الأفاعى ويتصلون ببعضهم البعض بأصوات يطلقونها تشبه أصوات طيور الصحراء حتى اذا ما وصلوا هدفهم أطلقوا أشارة الهجوم فينقضوا على جنود العدو محدثين جلبة كبيرة يستيقظ على أثرها كل من فى المكان مفزوعا ليحمل سلاحه ويطلق النار على الصديق والعدو معا .

كان الأمير يشن على اعدائه حروبا متنوعه اذ كان يضرب الحصار على المدن ويناوش حاميتها حتى يستنزف طاقتها وتنهار قوتها فتسقط تحت قبضته فريسة سائغة .

وعندما يخرج جنود العدو من سواكن فى تجريدة وعلى طول طريقها يظهر لها الأنصار ويناوشونها بصورة تجعل العدو يعتقد بأن هناك هجوم فيضرب معسكره ويقيم تحصيناته . ولكن الأنصار لايهجمون بل يعاودون فعلهم هذا كلما تحرك العدو فيكون العدو فى حالة استعداد دائم ولايجدمعه الجنود أدنى راحة.ولكم تشكوا هذه المناوشات التى كانت تشبه وخز الابرة . ولما يبلغ التعب

والارهاق بجنود العدو أشـده وتنحطم معنوياتهم يهجم عليهم الأمير بقواته فيبيدهم فى اللحظة المناسبة التى يساعده على تحديدها وتفهمها ما حظى به من قوة نفاذه تستنتج الكثير الهام من القليل التافه .

ولقد كان الأمير عثمان مؤمنا بأن الامام محمد أحمد المهدى هـو المهدى المنتظر ايمانا لم يتطرق اليه الشك أو الضعف وكان عازما على نصرته والجهاد معه حتى الموت . فكان اذن يدفعه الايمـان بفكره والاعتقاد فيهاوليس حب الانتقام وكراهية الحكام الذين صـادروا ممتلكاته وممتلكات أهله كما زعموا من قبل وان كان لهذا أثره غير المباشر على ذلك الايمان وتكوين تلك الشخصية لأن الظلم الذى يلحق الأفراد والجماعات كثيرا ما يخلق ثورة عارمة سواء فى الفـرد أو فى الجماعة ويؤثر فى حياتهم حتى بعد زوال ذلك الظلم اذا قـدر له أن يزول .

والأمير عثمان يجاهد فى سبيل عقيدة يؤمن بها حق الايمان وامتزجت بنفسه وروحه وكان يجاهد أيضا ضد الظلم الذى قاسى منه هو وعائلته وغيرهم من سكان سواكن والسودان انذاك . فاستمر الأمير كارها للاسر والاستعباد ، محبا للحرية والدين والجهـاد فى سـبيلهما . كان مصمما على الجهاد تصميما قويا . وقد سئل وهـو فى السـجن عن الحرفة التى يمكن أن يمارسها اذا أطلق سراحه فأجاب بأنه بايع على الجهاد فلا حرفة له غيرها .

ومما يدل على أن روح الجهاد قد تمكنت منه هـذه القصـة التى يرويها عنه أهل شرق السودان (وهى أنه عنـدما أحضر الى سـجن سواكن سنة ١٩٠٨ذهب اليه جماعة من البجة أهل الشرق لزيارته ومن بينهم ابنـة على ــ الذى توفى عن عمر كبير . وكان يحفظ القـرآن ويحسن تلاوته ــ فسلموا عليه فرد عليهم السلام ثم سكت ولم يحدثهم

فقرب اليه بعضهم ابنه عليا وقالوا هذا ابنك على الا تحدثه . فأجابهم وهو مطرق لو كان ابنى حقا لجاهد ولم يكن يرى للحيـــاة معنى غير الجهاد .

كان الأمير حاد الطبع لا يقبل الاهانة أيا كان مصدرها ومهما بلغ شأن مصدرها.وحكى أنه لما كان فى الثانية عشرة من عمره صفق الباب فى وجه السيد (جعفر الميرغنى) فتنبـــأ له بأنه ســيكون وبالا على لحكومة القائمة فكان .

وكان الحماس يأخذه فى المناسبات الدينية فيكون محور المجتمعين وسط الانظار ولم يكن يحتمل الركود والعطالة والجلوس دون عمــل وكان دائم النشاط عنــدما بنى منزله كان يعمل مع البنــائين كواحــد منهم . وكان كريما كرما يــكاد يبلغ حــد الاسراف . وكان الأهالى يعجبون بذكائه الخارق ، ونشــاطه المتــدفق ، وحركته الدائبــه ، ومواصلته العمل ومثابرته عليه .

وكان سريع البديهة لا يفحمه أمر مهما كان مفاجئا أو صعبا كما كان صعب الانقياد يعتز برأيه ويصر عليه دائما ، ويحسن التصرف فى كل الأمور . ولأنه ذاق مرارة الظــلم كان يكرهه فى كل صـــورة ويحب العدل والانصاف ودليل على ذلك قصة الطفل (محمد أنور) وهــو من بيت النظارة فى قبيلة (الحلانقة) بكسلا . فقــد كل أفراد عائلته وأنتزع منه بعض قادة الأنصار بقرتيه وناقتــه فشكاهم للأمير الذى استردهما له منهم بل جعلهم يدفعون ثمن اللبن الذى شربوه .

وهذه القصة فوق دلالتها على كراهيته للظلم وحبه للعدل تدل على مناصرته للضعفاء ضد الأقوياء وأخذهم بالشدة عند ارتكابهم لأى خطأ أو جنايه حتى لا يعودوا لفعلتهم مرة أخرى .

ومن صفاته القيادية انه كان يساوى بينه وبين اصحابه فعندما زار

صديقه (الطيب السواكنى) التاجر برفاعه أحضر له الأخير طعاما مختلفا عن الذى قدمه لاصحابه ولكن الأمير طلب منه أن يطعمهم من قص طعامه وكان يدرك ضعف النفوس وكراهيتها للتعالى وعدم المساواه .

ومن الأمور التى يخوض فيها المؤرخون بين الأمير عثمان والأمير أبو قرجة عندما جاء لشرق السوادن كثيرا وذكروا أن الأميرين قضيا معظم وقتهما فى عراك مع بعضهما البعض ولكن الخطابات التى كان يرسلها الأمير عثمان الى الأمير أبو قرجه تشهد بعكس ذلك وهذا خطابه اليه أرسله بتاريخ صفر سنة ١٣٠٧ الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٨٨٩ عندما دعاه الخليفة الى أم درمان وأوكل مهمته الى (المجذوب أبو بكر) .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى ألكريم وألصلاة على سيدنا محمد واله مع التسليم وبعد ـ فمن عبد ربه عثمان بن أبى بكر دقنه الى المكرم محمد عثمان أبو قرجة كان الله له أمين . بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نعلمكم أنه بناء على ما ورد الينا من كريم السيادة المتضمن طلبنا للحضور لديه وتوكيل من نثق فيه بعدنا فى الجيش ليقوم بالتدبر فى أمره ومسكه وحفظ الجهة من تطرق الخلل اليها قد استصوب لدينا توكيل المكرم المجذوب أبو بكر ليقوم بتدبير الجيش وحفظ الجهة حسب مرغوب السيادة لما رأينا فيه من الأهلية لذلك وعلى طبق ما أشير به لنا فى الأمر الشريف البادى ذكره من جمعكم انتم والوكيل الذى نعينه أمام الأمناء ومذاكرتكم بالاتفاق والاتحاد وقد سبق جمعنا لكم انتم والمجذوب المذكور ومذاكرتكم أمام الأمناء بالاتحاد والموافقه وعدم الاختلاف عملا بالأمر الشريف وأن كنتم حريصون بذلك ومظنون فيكم القيام بأمر الدين كرجل واحد وغير محتاجين فى ذلك لوصاية حسبما قصدكم الجميع

تأييد الدين لاغيره • وبتاريخ هذا قد تحرر منا رسميا أيضا للمكرم المجذوب باشعاره بهذا الأمر على ما أريد منه وما ندب فيه وأن يجتهد فى هذا الخصوص ويبذل كل كامل الهمة وذكرنا عموم الانصار أيضا عملائهم ومقاديمهم وأمرائهم بالامتثال للمجذوب المذكور وعدم الخروج فى اشارته حسبما أشير لنا بذلك فى الأمر الشريف البادى ذكره وتلونا عليهم منشور السيادة المحضر لهم فى هذا الخصوص وحثثناهم على العمل بموجبه والامتثال التام بوكيلنا المذكور المجذوب أبو بكر حيث أنه النائب عنا بأمر ولى الأمر سيدنا الخليفة عليه السلام وأن تكونوا معه كشخص واحد كروح فى بدن بحيث لا يكون بينكم أدنى افتراق فى الكلمة ولا اختلاف كما انكم أهل لذلك بارك الله فيكم والسلام •

ولقد أرسل عثمان خطابا مثل هذا الى المجذوب أبو بكر • وان دل هذا الخطاب على شيء فانما يدل على أن العلاقة بين أبو قرجة وعثمان دقنه واضحة وحسنة ولا يدل على أى نوع من الحقد أوالمنافسة بينهما تلك المنافسة والمنازعة التى ذكرها بعض المؤرخين والتى هى مجرد افتراء واستنتاج خاطيء • ولايعنى هذا انهما كانا على اتفاق دائم لأن الاختلاف فى بعض الأمور أمر لابد منه بين قائدين كبيرين يعمل أحدهم تحت امرة الآخر بعد أن كان كل أميرا مسئولا عن جهة •

ولم تكن مهمة الأمير عثمان فى الشرق قاصرة على القيادة الحربية وانما كان أيضا الحاكم الادارى والقاضى الشرعى وكان لما تلقاه من علوم الفقه والشريعة الفضل فى ذلك فكان يفصل فى القضايا ويستمع الى شكاوى الناس وكان يتفرغ لهذه الأمور فى بعض الأوقات أما القضاة فكانوا يصدرون أحكامهم فى القضايا الصغيرة ويصادق الأمير عثمان على تلك الأحكام • وكثيرا ما كان يستشيرهم فى القضايا الخطيرة ويأخذ برأيهم •

هذه بعض صفاته التى لازمته واعانته على القيام بمهمته . ومما يدل على حسن معرفته بطبيعة الأهالى وأقدار الرجال وميزاتهم وخصائصهم التى يكون من العبث محاربتها ماحدث من (قيـلا أور) زعيم قبيلة الشاطراب احدى قبائل الامرار وكان معروفا بالحكمه والتسـامح والعفو عند المقدرة ، عندما نصح قيلا أور اثنين من الضباط الانجليز كانا يصيدان فى مكان بالقرب من الأنصار يسمى (درور) أن يعـودا الى سواكن لخطورة المكان فعادا . وسمع الأمير عثمان بذلك ، ولكنه رغم حزمه وحرصه على سياسته التى كانت ترقى لقتل الأعداء اينما وجدوا لم يعاقب (قيلا أور) على تلك الفعله لأنها لم تكن غريبة على طبعه الانسانى . (قيلا أور) هذا كان تابعا للمهدية أول الأمر ولـكنه ثار عليها وحاربهـا ، ويذكر الأهالى أسبابا لهـذه الثـورة ومنها أن جماعة من قبيلة (قيلا أور) فيهم أخوه قتلوا أحد الأنصار لثـأر كان بينهم وسـمع الأمير بذلك فأمر (قيـلا أور) أن يحضر القـاتلين فاحضرهم بعد أن نصحهم بان يصروا جميعا على انهم اشتركوا جميعا فى قتله ، ظنا منه أن العقوبة سـوف تكون قسمة بينهم ، واسـتشار عثمان قضاته فافتوا بقتلهم جميعـا ، فقتلهم . ومن يومها انشـق (قيلا أور) على المهدية وحاربها وانتصر عليها فى (تسلها) بالتحالف مع محمود على الفاضلابى وانقذ والده وبعض الأسرى الآخرين . ومن يومها أيضـا بدأت المساجلات الشعرية بينـه وبين شـاعر آخـر (موسى نفل) من قبيلة (الشعياب) وكان الأخير من انصـار الثورة المهدية وكانت اشبه بالنقائض بين شـعراء الدولة الأموية (جرير ــ والفرزدق ــ والاخطل) واستمرت تلك المسـاجلات بينهما مدة طويلة وفيها ذكر الكثير من الحوادث فى تلك الفترة وتسجيل لانتصـارات الثورة المهدية على اعدائها فى الداخل والخارج .

ولقد قام الانجليز بعد فتح السودان بالقـاء القبض على الشـاعر

الفارس (موسى نفل) وحاولوا اثنائه عن مبادئه التى جاهد من أجلها فرفض وهددوه بالقتل فرفض فما كان منهم الا أن قاموا بشنقه .

لقد خلد الفارس (موسى نفل) انتصار الأمير عثمان دقنه فى ملاحم رائعة تشهد بشجاعة الشعب السودانى .

وهذه القصص والاشعار توضح طبيعة أولئك القوم الذين اكتسبهم الأمير الى جانبه رغم الاختلاف بينهم والمنازعات القبلية التى استطاع الأمير عثمان دقنه ازالتها – وشدة مراسهم فحاربوا المستعمر صفا واحدا فى شجاعة واقدام شهد بها الأعداء أنفسهم . وتبرز صفات واخلاق الأمير عثمان التى ذكر بعضها المؤرخون ولم يذكروا أكثرها لأنهم كانوا أعداء والعدو مهما عدل فانه لا بد متأثر بالعداء .

ولقد استمرت المعارك فى القرن الماضى بين الثوار السودانيين فى شرق السودان وبين الجيوش البريطانية ودارت معارك دامية بين الفريقين استمات فيها شباب السودان الشرقى المكون من أبناء قبائل البجه وصبر فيها الفتيان الانجليز الذين ارادوا أن يثبتوا عظمة أمبراطوريتهم التى كانوا يشيدونها فى كل رقعة من رقاع الأرض . وظهر بالاضافة للشاعر (موسى نفل) شاعران أخران يخلدان هذه المعارك الأول سودانى والثانى انجليزى . أما الأول فهو (محمد طاهر المجذوب) الذى ولد بسواكن حوالى سنة ١٨٤٢ وتلقى علوم الدين فيها ثم رحل الى الحجاز حيث نهل من العلم والمعرفة ثم عاد الى السودان . ولما شبت الثورة المهدية كان من فرسانها فى شرق السودان وكان من أكبر مستشاريها لدى الأمير عثمان . ولما رأى الحرب قد بنت اصحابه تأثر بها وجدانيا فنظم فيها القصائد وابدع فى ابراز دور الأمير عثمان دقنه ورجاله الاشاوس .

أما الشاعر الانجليزى فهو (روديارد كبلنج) الذى ولد فى مدينة بومبى بالهنـد عام ١٨٦٥ وتلقى علومه فى وطنـه انجلترا ثم عاد الى الهند ليعمل محررا فى احدى الصحف التى تصدر هناك وظهر (كبلنج) كشاعر فى وقت كانت فيه انجلترا أحوج ما تكون الى الشاعر الفذ .

وفى الأعوام بين ١٨٨٣ ١٨٨٥ اشتدت المعارك فى شرق السـودان بين الجيوش البريطانيـة والجيـوش السودانيـة وامتلات الصحف الانجليز وخاصـة التايمز باخبار هـذه الملاحم وأكثر الـكتاب من العسـكريين وغيرهم فى تدوين ذلك الصراع الدموى بين الأمير عثمان والجنرال جراهام .

واشترك (كبلنج) فى تدوين تلك المعارك وبدلا من تمجيد الجيوش البريطانية وجد نفسه أمام حدث تاريخى جديد فهنالك الجنود الانجليز بأسلحتهم الحديثة من بنـادق ومدافع يجابهون مقـاومة عنيفة من السودانيين الذين لا سـلاح لهم غير الايمان بالله وبقضية الحرية والسيوف البواتر . واخـرج (كبلنج) قصـيدته التى أورد هنـا ترجمتها والتى أهداها الى المحارب الذى استطاع بحد سيفه فقط أن يخترق المربع البريطانى الذى لم يكن قد حدث مطلقا أن استطاعت أمة من الأمم أن تحطم ذلك المربع العسـكرى ، غير جنـود البجة السودانيين وجعـل (كبلنج) موضـوع قصـيدته (البجـاوى) أو (فظى وظى) .

كما يقول الانجليز :ـ FUZZY WAZZY

البجاوى ذو الشعر الاشعث .

لقد التحمنا فى معارك ضد كثير من الرجال عبر البحار
وكان بعضهم شجاعا وبعضهم لم يكن كذلك
الباثيون ، والزولو ، والبورميون
بيد أن البجاوى كان أروع الجميع

لم نستطع أن نحصل منه حتى ولا على نصف بنس
كان يقعى بين الأشجار ثم يثب على فرساننا .
كان يقعى بين الأشجار ثم يثب على فرساننا .
كان يلعب بقواتنا كما يلعب القط باليمامة
لهذا فانني أقدم لك أيها البجاوى فى وطنك السودان .
هذا الاهداء . انك وثنى جاهل . ولكنك محارب من ألطراز الأول
نحن نقدم لك شهادة اذا اردتها ممهورة .
فاننا سوف نجىء اليك وستكون لنا معك جولة فى أى وقت نشاء .
لقد أخذنا فرصتنا بين تلال خيبر .

والبوير دوخونا وهم على بعد ميل .
والبورميون اذا قونا برودة ايروادى
وابن الشيطان ــ الزولو ــ نافسنا فى طريقتنا .
ولكن كل ما لقينا من هؤلاء .
كان قطرة اذا قيس بما جعلنا البجاوى تتجرع .
ولكن حين التقينا بالبجاوى رجل برجل فانه صرعنا جميعا
لذلك فاننى أقدم لك هــذا الاهداء أيها البجــاوى لك ولزوجتك وطفلك .

كانت الأوامر التى لدينا أن نحطمك ، وبالفعل فقد ذهبنا لانجــاز ذلك .

نحن أجهزنا عليك ببنادق المــارتينى ولم يكن ذلك من العــدل .
ولكن بالرغم من الظروف القاسية التى كانت ضدك ايهــا البجاوى فانك قد حطمت المربع .

ليس له أوراق يملكها .

ليس لديه مدأليات وجوائز .

لذلك فانه من الواجب علينا أن نشـــهد بالمهــارة التى أظهرها فى استعمال سيوفه الطويلة .

عندما كان يثب من خلال الأعشاب بترسه المستدير ورمحه العريض أن هجوم البجاوى فى يوم واحد من أيام سعده .

لكفيل بجعل الجندى البريطانى السليم مكتفيا بذلك اللقاء مدة عام

لذلك فاليك هذا الاهداء ايها البجاوى .

والى أصدقائك .

الذين لم يعودوا أحياء .

لو لم نكن فقدنا بعض أفراد ميزنا لكنا شاركناك فى احزانك .

غير أن الأخذ والعطاء هو سنة الحياة ــ واننا سنقول .

بأن الصفقة كانت عادلة .

لأنك وأن كنت قد خسرت اعدادا أكثر منا .

الا أنك هشمت المربع .

أنه يهجم على الدخان عندما تتوقف عن التقدم .

وقبل أن نعرف الموقف نجده قد أعمل سيفه فى رأسنا .

أنه رمال محرقة وزنجبيل حار عندما يكون حيا

وأنه على العموم يكون مرعبا عندما يكون ميتا .

أنه زهرة الديزى أنه جوهرة أنه حمل .

أنه قطعة من المطاط المهووس بالانطلاق .

أنه الشيء الوحيد الذى لا يعطى مثقال ذرة من الاهتمام .

لفرقة المشاه البريطانيين .

لذلك فاليك هذه القصيدة أيها البجاوى برأسك .

ذى الشعر المدبب
أيها الأسود الكبير اللعين لأنك أنت •
حطمت المربع البريطانى •

هكذا استطاع السودانيون تحطيم المربع البريطانى والتكتيك الحربى الذى جعل الانجليز يحتلون أمبراطورية لاتغيب عنها الشمس وهكذا نطق شاعر الأمبراطورية باعتراف كامل لعظمة المحارب السودانى •

فى الوقت الذى كان فيه (كبلنج) يقف مع المعسكر البريطانى ينظر ويسمع ويعى ما يفعله الجنود الانجليز فى حربهم مع الجنود السودانيين نجد أن ابن المجذوب يقف فى المعسكر السودأنى يثب وثبات الجنود ويحمل على اعدائهم مع المجاهدين ويضرب بسيفه مع الضاربين • غير أن الحرب كر وفر وأخذ ورد ولهذا فانه وزميله الأمير عثمان دقنه كانا ينسحبان حين يكون الانسحاب حزما ويكران حين يكون الكر عزما . ووصلتهم الأنباء من العاصمة السودانية وقد أصدرها الخليفة عبد الله يامرهم فيها بالتقهقر لاستدراج الجيش الانجليزى الى داخل البلاد وسبه من الساحل الى التلال لمواصلة حرب الاستنزاف ضده حتى تنفذ موارده ويتم فناؤه على ايديهم• ويخشى ابن المجذوب أن يحسب العالم انهم منهزمون فتراه يصف معارك الأمير عثمان دقنه مع الانجليز الذين أطلق عليهم لقب (بنى الأصفر) لأنهم كالروم • ويشيد بقومه الذين اشاد بهم (كبلنج) أيضا وهكذا اتفق أعداء على شجاعة البجاوى حيث اختلفا فى حسن الجوار •

يقول محمد الطاهر المجذوب حين كان الانجليز يريدون أن يباغتوا الأمير وهو فى منطقة (هندوب) فاخذ فى الانسحاب لكثرة عددهم ولمباغتتهم فى التلال والوديان :

هندوب تعرف صبرنا   كيف ارتكبنا للمصاعب
يا طالما صدنا بها   صيد الغضنفر للثعالب
ما ان رحلنا عنهم   جزعا ولا خوف النوائب
بل طاعة لولينا   فليد رذا كل الأجانب

اتفق الشاعران الانجليزى والسودانى على شجاعة الجندى البجاوى وكلاهما يذكر كيف كانت عملية الصيد تتم فهى عند البجاوى صيد الغضنفر للثعالب وعند البريطانى صيد القط لليمام وكلاهما شهد بأعمال البطولة السودانية على أسوار سواكن التى كانت بحائطها العظيم • ومع ذلك كان البجة يتخطون الحراس البريطانيين الواحد بعد الآخر . وكما كتبت الصحف البريطانية واهتمت باخبار المعارك ، كذلك جريدة الجوائب والعروة الوثقى وكانت كل الصحف الناطقة بالانجليزية أو العربية تشهد بجسارة الجندى البجاوى •

أن الجنود البجه فى حروبهم بشرق السودان قد كسبوا أكبر الفضل فشاعرهم سطر أعمالهم الباهرة بشعرهم الرصين • وشاعر أعدائهم شاعر الأمبراطورية البريطانية قلدهم أعظم الأوسمة فى تاريخ الشعر والحرب فأفرد للجندى البجاوى تلك القصيدة الرائعة •

لم يكن الأمير عثمان يواجه المستعمر فى ميدان القتال فحسب بل كان المستعمر البريطانى يشن حربا على كل الميادين السياسية والدينية والعنصرية فاحضر الانجليز معهم من مصر زعماء طائفة الختمية فى ذلك الوقت وجعلوهم يشنون حملات دينية شعواء ضد الأمير عثمان دقنه لتكذيبه ودحض دعوى الامام المهدى ولم يقتصر الأمير على هذا بل أغرق الانجليز الأموال لزعماء العشائر لينفضوا من حول

الأمير كما اثاروا المنازعات القبلية النائمة حتى تفتتت وحـدة الصف الذى جمعه الأمير ولكنهم فشلوا فى كل ذلك .

لقد قامت الثورة المهدية لاحياء علوم الدين والرجـوع للاصـول فكانت أساسا ضد كل الطرق الصوفية وعندما فتح الأمير عثمان دقنه قريه الختمية فى كسلا قام بتحطيم قبة السيد الحسن الميرغنى . ولم هذا تنفيذا لتعاليم الامام المهدى بالقضاء على القباب والضرائح ولكن صاحب ذلك تفسير خاطىء وهو أن أعمال الأمير عثمان ضد المراغنة انما هى بوحى من الشيخ محمد الطاهر المجذوب المنافس التقليدى للمراغنة بشرق السودان . هـكذا نجـد أن الأمير لم يكن يستجيب لنزعات أصدقائه بل كان ينفذ تعليمات الدعـوة المهـدية التى تدعو لاحياء الاسلام الأصيل ونبذ الطائفية والنحل الدينية .

كانت شخصية الأمير ضافية تطغى على كل ماحولها وتجتذب كل من يراها ولايملك الشخص عند مايراه الا أن يتبعه معجبا به . وأكبر دليل على ذلك هـو ان أحد أبنـاء محمود على عنـدما وصـل الى الأمير مرسلا من قبل والده بالنساء الاسـيرات ، وعندما رأى الأمير عثمان دقنـه أعجب به ولم يملك الا أن بايعـه وانخرط فى سـلك المهدية تاركا والده وأهله . كما أن قوة شـخصية الأمير تظهر عندما قام الانجليز باسره وارادوا ادخاله لسـواكن فحـذروا كل المواطنين بعدم الكلام معه ولا حتى رد التحية اذا القاها . وادخـل الأمير الى سواكن على ظهر بعير مكبلا بالسلاسل وعندما تقدم من البوابة التفت من على يمينة على الجمهور المصطف لمشاهدته مرسلا التحية فما ملك الشخص الواقف على يمينه الا أن رد قائلا عليك السـلام يا أمير وسقط من كان واقفا بجواره مغشيا عليه عندما سمع صـوت الأمير .

كانت شجاعة الأمير خارقة للمألوف ففى أول هجوم له على سنكات وعندما رأى الرصاص يحصد أصحابه تقدمهم واقتحم الحصن وضرب قائد الترك بسيفه ولكنه أصيب اصابات بالغـة . حمـل على أثرها خارج المعركة . أما فى هجمة كتشنر المباغته لهم فى هنـدوب أثنـاء صلاة الصبح . فبالرغم من المفاجأة وتجريد الأمير من سلاحه وفرسة فانه لم يهرب بل جمع شمل صفوفه ونظمها وهجم على العدو مكبدا اياه خسائر فادحة به اشنع هزيمة ففر جنوده يتسابقون الى أسوار سواكن .

لم يكن الظلم طابعا أو صفة من صـفات الأمير عثمان بالرغم من أن بعض تصرفاته قد توحى بذلك من الوهلة الأولى فلقد كان علمه بالدين وحفظة للقرآن يمنعانه من ذلك . فعندما قام بعد واقعة كوفيت باعدام بعض أعيان كسلا بعد أن بايعوه وأمنهم على أرواحهم واموالهم. ولكن الأمير وجد خطابات من محافظ كسلا السابق والأعيـان الذين حاكمهم بين القتلى من الأحباش فى واقعـة كوفيت يستنجدون فيهـا بالأمبراطور الحبشى ويكشفون له نقاط الضعف فى موقف الامير . ولما كان الامير فى حالة حرب فان الأحكام يجب أن تكون رادعة زيادة على أن المحافظ أحمـد عفت ومن معه نكثوا البيعه وتامروا على الأمير وسددوا له طعنة من الخلف فاذا قارنا حجم العقوبة مع حجم الجرم نجد انهما متماثلان فالتهمة التى وجهت اليهم هى (الخيانة العظمى والتآمر مع دولة أجنبية ضـد قوات الأمير الوطنية) . كمـا أنه لـم يكن كريما ولا اخلاقيا من محافظ كسـلا أن يخون ويتـآمر ضد من أمنه على ماله ونفسه . هذا وقد كان المحـافظ مترددا قبـل البيعه ولم يبايع الا مكرها فوجود مثل هذا بين صفوف الثورة يجعلة بنشر افكاره المخربه بين جنود الأمير ويستقطب ضعاف النفوس وكان الظرف طارئا لا يقبل التهاون فلم يكن أمثل من عقوبة الأمير حكما ، ولم يتورع الأمير عن اقامة الحـد حتى على نسـيبه ناظـر الامرار .

جعل الأمير معاملته لجنوده عادلة لا يميز أحدهم على الآخر ولم يكن متحزبا لفئة أو قبيلة فكان ان عين الأمير مصطفى هدل وهو من قبيلة الارتيقة على منطقة كسلا وهى منطقة قبائل الهدندوه وأخوال وعشيرة الأمير عثمان ، كما أنه جعل أحمد طه أمير راية وهو من قبيلة سمر أيدواب الهدندوه لأنه تأخر فى الحضـــور للبيعه وسـبقه اليها الأمير مصطفى هدل • ولم يكن الأمير يفضل أهله ويخصهم الا بالشهادة ، فكان الدقناب دائما يتقدمون الصفوف فى المعارك لمواجهة العـــدو فيلقوا الشهادة ضاربين بذلك أروع الأمثلة فى البطوله والشـجاعة والتضحية حتى يكونوا قدوة حسنة لكل المحاربين • ولقد حمد الأمير الله كثيرا عندما استشهد ابنه محمد فى واقعة (تأماى) حتى لايعتقد بعض ضعاف النفوس بأنه لايلقى بابنائه فى ساحة الوغى •

لقد وفق الأمير عثمان فى اختيار مساعدية وقادته ايما توفيق فلقد كان الشيخ الطاهر المجذوب ساعده الأيمن يمده بالنصح والمشورة كما ضم كل مريدية الى أمارة الأمير عثمان وكان سنده الروحى وأكبر عون له خاصة فى أيام الثورة الأولى وقبل أن يعرف النـــاس قدرات الأمير عثمان كما كان ابنه محمد الطاهر المجذوب رفيقا للأمير يسانده بسيفه فارسا مغوارا لا يشق له غبار ويغدق عليه بشعره شاعرا فحلا يخلد امجاد الأمير عثمان ورجاله الشجعان •

وكان من قواده الأمير على طلاب الذى اســتطاع أن يقضى على قوة تبلغ ضعف قوته فى واقعـــة ابنت وغنم اسلحتهم وامتعتهم وكانت هذه أول مرة يملك فيها الأنصار البنادق والأسلحة النارية • ومنهم أيضا الأمير عبد الله حامد أمير الساحل الذى هزم القمندان محمود باشـــا طاهر فى واقعة التيب الأولى التى قتل فيها مونكريف القنصل البريطانى واحد عشر من الضباط الانجليز وهرب البـاقون الذين كانوا يبلغـــون أضـــعاف قوة الأمير عبد الله حامد والذى ظل حاميـــا للســاحل حتى

استشهد فى واقعة التيب الثالثة . ومنهم أيضا الأمير مدنى المجذوب الذى هزم فلنتين بيكر فى واقعة التيب الثانية بقوة تبلغ ربع قوة فلنتين بيكر ومنهم ايضا الأمير على حامد الذى كان متفقها فى علوم الدين يعلم الناس أصول الدين ، ثم شمر للجهاد وحمل سيفه وقاد حصار
يعلم الناس أصول الدين ، ثم شمر للجهاد وحمل سيفه وقاد حصار
سنكات ضد محمد بك توفيق داهية عصره الذى وصفه المستعمر بالشجاعة والمكر ولكن الأمير على حامد استطاع أن ينتصر عليه بعد حصار طويل وانتظار مميت . ومنهم أيضا الأمير الخضر بن على الذى قام بفتح طوكر وادانها للثوره المهدية . ومنهم أيضا الأمير مصطفى على هدل الذى استطاع فتح طوكر وضواحيها بعد حروب ضروس . ومنهم الأمير محمد فاى الذى قاد هجوما انتحاريا ضد قوات (تاب) واستطاع أن يقتل (تاب) بعد أن أصيب اصابات قاتلة وغير هؤلاء ممن اختارهم الأمير عثمان من الأبطال الذين وفق فى اختيارهم .

لقد استطاع الأمير عثمان بمقدرته الفائقة فى الاقناع نشر الدعوة فى شرق السودان بين قبائل البجة التى كانت تعيش فى تلك الفترة حياة أشبه بحياة القبائل العربية قبل الاسلام فى بعض النواحى من ناحية تمسك الفرد بالقبيلة وتفانيه فى الدفاع عنها والاستماته فى سبيلها ومن ناحية للعداء بين القبائل والحروب المستمرة بينها بالرغم من انهم كانوا جميعا مسلمين وينتمون الى عنصر واحد تقريبا . وربما يرجع ذلك الى صعوبة الحياة وفقر البيئة والطبيعة الجبلية من ناحية ومن أخرى عدم وجود العدو المشترك أو الشعور به لأى سبب . ولقد استطاع الأمير عثمان بفضل ماوهب له من صفات نادرة مكنته من توحيد هذه القبائل ليحارب بها المستعمر تحت راية الثورة المهدية

حربا لا هوادة فيها شــهد بقوتها وشجاعة محـاربيها الأعداء قبـل الأصدقاء .

أن الأمير عثمان دقنه ضرب نادر من الرجال وهب ماله وجهـده حتى ابناءه فداء لوطنه مترفعا عن كل مادى ورخيص طالبا المجد من من أوسع أبوابه ساميا بمعانيه وقيمة يرتاد التهلكة والفناء فى سـبيل حربة وعزة بلده ردحا طويلا من الزمن قارب النصف قرن من الرمان ظل منه سبعة عشر عاما يجـوب افاق الشرق حاميـا له من جيوش المستعمر الغاصب ثم ظل فى الأسر ربع قرن من الزمان صـابرا على الأسر والآمه دون أن يفت من عزيمته .

لقد ضرب لنـا الأمير عثمان دقنـه أروع الأمثلة فى التضحية وانكار الذات فى سبيل الأوطان حتى صار منارا للحرية يهتدى بهومثلا أعلى للشجاعة والنضال فلقد خط صفحات وضاءه من تاريخنا القومى نفخر بها على مر الأجيال والأزمان .

الفصل السادس عشر

مكانته

تاريخنـــا الســـودانى حافل بالنضال والتضحيات عبر متاهات الزمن بما بذله اجدادنا من دم وعرق فى ألذود عن أوطانهم . ومن خلال هذا الخضم الحافل بالبطولات تتبدى لنا شخصيات اسطوريه لمــا أظهرته من اعجاز يفوق الخيال ومن هذه الشخصيات البطل الأمير عثمان دقنه الذى تحـدث عنـه الغرب قبل الشرق وتنـازعته الدول الكبرى واختلف فيه الكتاب والمؤرخـون لمـا ناله من اهتمام على مر الأيام .

لقد كان الأمير عثمان بطلا من ابطـال الثورة المهـدية وتعرض لمـا تعرضت له الثورة المهـدية من تشـويه من المستعمرين الانجليز وغيرهم لتحقيق أغراضهم الاسـتعمارية وكان أخطر هـذه المصـادر غردون الذى أساء التعليل لانتشار الثورة المهدية فى بقاع ألسـودان كذلك سلاطين باشا الذى ألف كتابه (السيف والنار فى السـودان) فى نفس السنة التى هرب فيها من السودان والذى طبع فى السـنة التى سبقت بدء حملة الاحتلال بوقت قصير والذى عدد فيه ما اعتبره مثالب الحكم المهدى فى السودان تمهيدا للاحتلال محاولا اقناع الرأى العام الأوربى والمصرى بل والسـودانى بضرورته . وأبرأهيم فوزى الذى ألف كتابة (السودان بين يدى غردون وكتشنر) بعد الاحتلال مباشرة والذى كان لتحسين ذلك الاسـتعمار فى نظـر الرأى العـام العالمى ، بل وفى نفس السودانيين المغلوبين على أمرهم فى ذلك الوقت،

وكذلك بعض المصادر المحلية ، تلك المصادر التى لم تكن أقل خطورة فى أمر تشويه الثورة المهدية بشكل عام وشخصية الأمير عثمان دقنه الذى نحن بصدد الحديث عن شخصيته بشكل خاص .

لقد حاز الأمير على اهتمام المستعمر فى تشويهه للحقائق واهتمامنا فى ابرازنا للصورة الحقيقية لأنه كان مؤمنا بتلك الدعوة أقوى الايمان ، واخلصه ولأنه كان جنديا من أخلص جنودها ، وأقدرهم وأكثرهم جهادا فى سبيلها . والذى كان المسئول عنها فى شرق السودان بعد أن نشرها بين القبائل هناك حتى التفت حولة جميعها فى وقت من الأوقات ، وقام بجانب نشر الدعوة المهدية فى شرق السودان بمنع الحكومة الانجليزية من استخدام طريق سوأكن/بربر. هذا الأمير الذى لم يشك حتى الأعداء المحاربين أنفسهم فى اخلاصه لتلك الدعوة ودوافعه للجهاد فى سبيلها ، ذلك الجهاد الذى لم تفارقه روحه حتى لقى ربه ، هذا الأمير الذى اتحد مع زعيم هذه الدعوة قلبا وقالبا ، هذا الأمير الذى أصبح وهذه الدعوة شيئا واحدا لا سبيل الى فصله منها . والحديث عن هذا الأمير لابد وأن يتضمن الحديث عن تلك الدعوة التى بلغت فى نفسه هذا المبلغ العظيم ولا سيما اذا كان هذا الحديث كهذا محاولة للكشف عن حقيقة ودوافع الشبهات فى بعض المصادر التى كانت فى أغلب الأحيان تتعمد اثارتها حول تلك الدعوة بشكل عام (ويقصد بعضها المصادر المحلية خاصة) والأمير عثمان دقنه بشكل خاص .

ان هذه المصادر وخاصة المصادر المحلية ، كانت كراهيتها للامير عثمان دقنه مزدوجة . وذلك لأنها كانت تعادى الثورة المهدية . والتى كانت تنكر الأساس الذى تقوم عليه . فكانت تبادلها انكارا بانكار بل تعتبرها مجرد فتن قامت واستغلها بعض الناس لحربهم ، وكان الأمير عثمان دقنه قائد تلك الدعوة الذى استطاع أن يفرض

سلطانها فى بعض الجهات التى كانت واقعة تحت نفوذ بعض تلك المصادر . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فانه سجل الكثير جدا من الانتصارات على الحكومة التى كانت مصدر القوة والسلطة لتلك المصادر . وعلى هذا فانها عملت على تشويه الثورة المهدية لكراهيتها لها للاسباب المذكورة من ناحية ، ومن ناحية اخرى لتقول للناس الا الأمر الذى كان يدفع الأمير عثمان دقنه للحرب خطأ من أساسة . ومن ناحية ثالثة فان هذه المصادر المحلية التى كان عداؤها للامير عثمان دقنه أقوى من عدائها للثورة المهدية نفسها راحت تقول للناس فى السودان وفى خارج السودان وخاصة أولئك الاجانب الأوربيون خاصة الذين كتبوا عن الثورة المهدية فى السودان وعن الأمير عثمان دقنة مثل جاكسون وبول وغيرهما بان الأمير عثمان دقنه بصرف النظر عن صحة وخطأ الثورة المهدية بان الأمير عثمان دقنه بصرف النظر عن صحة وخطأ الثورة المهدية لم تكن دوافعه للجهاد فى سبيلها كما يقول بذلك من كتبوا عنه من الأوربيين خاصة ، خالصة لها بل انه لم يكن يحارب أصلا الا انتقاما من تلك الحكومة التى صادرت ممتلكاته وممتلكات عائلته والتى سجنته مرتين قبل قيامة فى تلك الدعوة ونفتة عن موطنة سواكن .

كان للثورة المهدية التى اندلعت فى السودان فى ذلك الوقت الفضل فى كشف مقدرات الأمير عثمان دقنه وغيره من الامراء والرجال الذين ظهروا فى ذلك الوقت وضربوا أعلى المثل فى الشجاعة والاقدام والجهاد فى سبيل المبادىء وفى سبيل الوطن ، فالحديث عن الشبهات التى تعرضت لها هذه الدعوة يكشف النقاب عن الدوافع الاستعمارية التى تضافرت محاولة تزييف وتشويه وجه السودان فى فترة الثورة المهدية ، التى اندلعت فى السودان عندما بلغ الحكم

التركى المصرى أوج فساده وجبروته . واستطاعت أن تحرر الناس والبلاد من نير ذلك الحكم الغاشم الذى ساعد فساده وظلمه وقسوته فى التفاف الناس فى السودان حول الزعيم محمد أحمد المهدى بمجرد اعلانه دعوة المهدية . واستطاع هذا الزعيم أن يوحد السودانيين بعد أن تفرقوا شيعا وطوائف وشعوبا وقبائل فى كل انحاء القطر الذى توحد معظمه من قبل عندما قويت شوكة السلطنة الزرقاء ولكنه عاد الى التفرق عندما ضعفت السلطنة الزرقاء . ثم أصبح وحدة ادارية فى فترة الحكم التركى المصرى ولكنها كانت وحدة اجبارية فرضها عليهم الحاكم التركى المصرى فلم تكن كافية لأن تجعل الناس فى السودان يشعرون باهميتها وقيمتها بالنسبة لما كان ينبغى أن يكون عليه السودانيون فى ذلك الوقت ، الذى نشط فيه الاستعمار الأوربى فى كل انحاء أفريقيا وفى المناطق المحيطة بالسودان بوجه خاص ، وعلى رأس هذه العوامل التى اشتركت فى محاولته تشويه وتزييف تاريخ السودان فى هذه الفترة المذكورة وتضليل الرأى العام العالمى والبريطانى والأوربى والمصرى عن حقيقة الثورة التى اندلعت فيه وزعيمها والرجال الذين تولوا أمر نشرها فى كل بقاع السودان وخاصة الأمراء أمثال الأمير عثمان دقنه الذى نتحدث عنه فى هذا البحث ، وعن شخصيته والذى تولى نشر هذه الدعوة فى شرق السودان وكان عليه منع جيوش بريطانية العظمى من الاستفادة من طريق سواكن / بربر بعد أن تعسر الطريق النيلى بفضل سقوط بربر فى يد المهدى ، وخاصة بعد أن بلغ غردون الخرطوم وأعلن سياسة الانسحاب ولقد كان غردون عاملا مضللا لحقيقة الثورة المهدية ، ولقى حتفه مع غيره نتيجة تعصبة وغروره وتحدية للثورة والثوار فى شخص زعيمها محمد أحمد المهدى . ثم سلاطين باشا الذى كان أسيرا فى يد الثوار طيلة الاثنى عشر عاما التى قضاها حتى وجد الفرصة للفرار

واستطاع أن يكتب كتابه (السيف والنار فى السودان) الذى تولى فيه اظهار الثورة المهدية فى احلك الاثواب وزعيمها ألمهدى فى ثوب المدعى المغرور ولاغرو فسلاطين كما ذكرنا كان اسيرا طيلة هذه الفترة وكان مفروضا عليه أن يقوم بواجبات عقيدة كان يجهلها أصلا فضلا عن المهدية واظهار الايمان بها والارتياح لما كانت تحرزه من الانتصارات على الجيوش التركية والانجليزية فى ذلك الوقت فى الشرق والجنوب والغرب تلك الانتصارات التى كان يتمنى فى قرارة نفسه أن تكون هزائم كما وضح ذلك فى كتابة المذكور فى أكثر من موضع ، لأنها جميعا كانت انتصارات ضد الحكومة التى كان من كبار مسئوليها . والتى كان يتمنى لها الانتصار كما كان يتمنى للمهدية الهزيمة ويرجو أن تستعيد هيبتها ونفوذها لتعود اليه هيبته السابقة ولربما ينتقم من آسريه وقاتلى سيده وولىنعمته غردون الذى جعله حاكماعلى كردفان ولما يتجاوز العشرين بكثير وليخدم الحكومة التى حاول أن يخدمها فى الماضى بولاء وامانة كما يقول . وغيرهما كثير من الأروبيين وغيرهم ممن كانوا أدوات طيعة فى ايدى الساسة البريطانيين الاستعماريين فى ذلك الوقت وتولوا التمهيد من هذه الناحية للاحتلال باظهار الثورة المهدية بمظهر الوحش الذى ينبغى الفتك به لتخليص الناس من شروره تحسينا للاستعمار وتضليلا للرأى العام العالمى والبريطانى والأوربى والمصرى عنحقيقة النوايا الاستعمارية،التىظل الساسة البريطانيونيحلمون بهاويهيئونلها الأسبابمنذ أناحتلوامصر بعد ثورة عرابى بحجة حفظ الأمن والنظام فيها . ولكن محاولاتالنيل من تاريخ السودان فى فترة الثورة المهدية لم تقف حتى بعد الاحتلال نفسه كان فى حاجة الى من يتولى تحسينه فى نفوس السودانيين المغلوبين على أمرهم .. لأنهم بالرغم من الهزيمة ظلوا يشعلون الثورات هنا وهناك الأمر الذى أقض مضاجع المستعمرين وأذنابهمفى

ذلك الوقت وقام من يتولى ذلك التحسين المذكور من الأوربيين وغير الاوربيين من الأجانب وغير الأجانب من الذين صادف ذلك الامر هوى فى نفوسهم ، للكسب الرخيص الذى ينالونه من المستعمر الغاصب أو للحقد الذى ظل يأكل افئدتهم طيلة فترة انتصارات وحكم الثورة المهدية فى السودان ، لأى سبب من الأسباب . فلقد كان الحكم المهدى حكما وطنيا قام على انقاض حكم استعمارى غاشم ظل جاثما على صدور الناس فى السودان ستين عاما يذيقهم صنوف القهر والظلم والقسوة ويأخذ خيرات بلادهم ويحرمهم منها لأنه جاء أساسا لهذا الغرض ولم يجىء لنشر الأمن والنظام والمدنية فى السودان . ولم يكن مبنيا على الحق والعدالة والاخلاق هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه كان تجربة جديدة لم يكن أمامها فى السودان خاصة محاولة قريبة لنفس ذلك النظام الذى حاولوه والذى مات عنه صاحبة وزعيمه ولم تثبت أقدامه ليبينه للناس ولم يخل من ذوى الأطماع والمستبدين والمستغلين الذين ملاءوا صفحات التاريخ .

لقد استغل الاستعمار البريطانى لكل ما فى الأفراد من ضعف وعجز وقوة أحيانا ، وتعصب دينى أعمى أحيانا اخرى . ولكن سلاطين باشا وفوزى باشا بعد أن فشلا فى أن يحققا لسادتها ما ارادوه عن طريق المقاومة والموت حاولا أن يعطيا السادة بديلا لذلك التمهيد للاحتلال ومحاولة تحسينه فى نفوس الناس فى السودان وذلك عن طريق تشويه الثورة المهدية التى حررت الشعب السودانى . ولكن هناك مصدر آخر لا يقل خطورة عن هذين المصدرين السابقين ولا عن تخرصات غردون باشا وغيرهم ، وهذا المصدر الخطير هو روايات بعض الحاقدين من السودانيين (من اعتبروا أنفسهم سودانيين بل زعماء للسودانيين واعتبرهم بعض الناس كذلك) عن الثورة المهدية ، لأى سبب من الأسباب ممن كانت تسوءهم انتصارات الثورة المهدية فى

شرق السودان ،وغير الشرق أكثر مما كانت تسوء لأعداء المحاربين أنفسهم الذين يقتلون ويقتلون . هذه الروايات التى ساهمت بالنصيب الأكبر فى محاولة تشويه الثورة المهدية بشكل عام ، وشخصية الأمير عثمان دقنه الذى نحن بصدده ودوافعه لقيامه فى الثورة المهدية التى كان أميرا من أخلص أمرائها وقائدا من اعظم قوادها بشكل خاص . لأن المسلمين وغير المسلمين من الكتاب وغيرهم اعتبروا هذاه الروايات بشكل والتخرصات مصدرا موثوقا به ومصداقا لما جاء فى هذين الكتابين وغيرهما من الكتب والمقالات التى تناولت هذه الفترة من تاريخ السودان ورمتها بكل قبيح من الأوصاف والنعوت . لأنهم بالرغم من كل الاعتبارات الأخرى وبالرغم من حقدهم على الثورة المهدية هم فى نظر الأجانب عامة يعتبرون الشاهد من أهلها ، الذى يعتبر قوله عن الثورة المهدية وعن رجالها وعلى رأسهم الامام المهدى والامراء أمثال الأمير عثمان دقنه والمخلصين من الانصار مع كثير من الأسف ، بمثابة الاعتراف الذى يدلى به صاحب الأمر . لأنهم كما قلت ، وبالرغم من كل الاعتبارات الأخرى سودانيون وكانوا مستعمرين والثورة المهدية مهما حاولوا تشويهها أو اتهامها وتضليل الناس فى السودان وفى خارج السودان عن طبيعتها الدينية والتحررية ، ثورة سودانية ودينية ، حررت الناس فى السودان من الاستعمار الأجنبى الذى جاء أساسا لاستغلال ونهب خيرات هذا البلد واستعباد أهله شأنه الاستعمار فى كل عهد ومكان مهما اختلفت الأثواب التى يرتديها والذرائع التى يتذرع بها والادعاءات التى يدعيها . وبالرغم مما قيل عنه كما رأينا فى أحاديث مؤرخى المستعمر والذى حاولوا فيه أظهار الحكم الاستعمارى السابق للمهدية كحكم مبنى على الاخلاق والعدالة والحق وليقولوا عن الحكم المهدى الذى يبغضونه كل البغض أنه كان مبنيا على الظلم والباطل البربرى والتجرد من نظم الأخلاق . ولقد كان دافعهم فى ذلك أسباب وأغراض غير كريمة ، والتى كان بعضها

لشعورهم بأنهم لم يـكن لهم نصيب فى ذلك الأمر ولم يشتركوا فى الجهاد على الأقل ضد الاستعمار ، اذ لم يؤمنوا كما يقولون بصحة الدعوة المهدية من الناحية الدينية والاسـلامية بل أن بعضهم كان ظهيرا للاعداء ونصيرا لهم . وكان يسعى جهده لتكون لغلبة لهم دون الثوار فى السودان . ثم جـدوا فى تشويها ورمبها بكل قبيح من الامـور وحتى أصبح هذا الذى قالوه عن الثورة المهدية فى السـودان أخطـر من كل ما قاله عنها الأعداء من الاسـتعمار الأجنبى وأعوانه فى هـذا الأمر ولتحقيق الغرض الاستعمارى الجديد فى ذلك الوقت من هـذه الناحية ، بل أصبح مصدقا لكل سوء زعم وجهه أولئك للثورة المهدية والى رجالها لأنهم الشاهد من أهلها .

فكانت خطورة رواياتهم وافتراءاتهم على الثورة ألمهدية من هذه الناحية أولا ومن ناحية أخرى أيضا لا تقل خطورة عن هـذه الناحية وهذه الناحية الأخرى الخطيرة لهذه الروايات المحلية غير الأمينـة والتى كان يمليها الحقد المرير على الثورة المهـدية التى كشفت حقيقة ما يكنونه لهذا البلد الذى اقلتهم أرضه وأظلتهم سماؤه وأصابوا من خيراته الكثير ثم لم يقابلوا كل ذلك بغير الجحود ومظاهرة أعـدائه عليـه ، وهى أن معظم الأجانب الذين كتبوا عن الثـورة المهـدية فى السودان لم يكونوا مسلمين ، وكانوا يجهلون الـكثير عن الاسـلام الذى كان يعاديه معظمهم أيضا . وبالتالى فانهم كانوا يجهلون طبيعة الثورة المهدية الدينية وأهم من ذلك كله أنهم كانوا يجهلون رأى الدين الاسلامى الذى يجحدونه ويعادونه فى هذه الدعوة التى قام بها المهدى وقد ساهم الجنرال غردون فى محاولة التضليل عن حقيقتها التى جهلها هو نفسه وبالرغم من دعواه بأنه العليم بالسودان والسودانيين . بالرغم من أنه فى حربه الدعائية أول الأمر اعتمد على بعض رجال (الدين) من السـودانيين الذين كانوا يوافقونه فيما يذهب اليـه من آراء

عن الثورة المهدية فى السودان ، قصدا أو جهلا ويزعمون له وهو المسيحى المتعصب ، الذى ينكر الاسلام أصلا بأن دعوة المهدى ليست من الاسلام فى شىء . ثم جاء هـؤلاء الذين ذكرتهم ليقولوا لهـؤلاء الأجانب غير المسلمين بأن الدعوة المهدية فى السودان لم تكن دعوة اسلامية ، ولم يكن زعيمها المهدى مهديا كما يقول ويعتقد أصحابه ، ولم يكن اصحابه والسائرين في ركابه والداعون لدعوته فى السودان من الأمراء والانصار سوى أشخاص كانت تدفعهم أغراضهم الخاصة الى ذلك ، وأحيانا حقدهم على الحكومة دفعهم للانتقام منها كما يقولون عن الأمير عثمان دقنه ، الذى قالوا عنه ولا زالوا يقولون بأن الأمر دام سبعة عشر عاما وظل خمسة وعشرين عاما فى نفسه قوة تمنعه من الذى دفعه للاشتراك فى الثورة المهدية والجهاد فى سبيلها ذلك الذى الاعتراف بالنظام الذى قام على انقاض النظام الذى جاهد من أجل تدعيمه طيلة السبعة عشر عاما ، هو الحقد والانتقام من الحكام الذين صادروا أملاكه وأملاك عائلته من البضائع والرقيق ومنعوهمن الاتجار بالرقيق كمـا يقول بذلك غردون وغيره ممن كانوا أورات طيعة فى يد الاستعمار البريطانى فىذلك الوقت ، وجاء هذا الذىقالوه مصداقا لذلك الافتراء من ناحية ومن الناحية الأخرى وجد من جاء من بعد هؤلاء من المسئولين والكتاب غير المسلمين فى أقوال هؤلاء مايؤيد الزعم الذى يذهب فىالقول بأن الثورة المهدية فىالسودان لم تكن ثورةدينية وان زعيمها المهدى وغيره من الرجال فى هذه الثـورة كانوا يعملون لأغراضـهم الشـخصية ولم يـكن الدين الا غشـاء خارجيـا اختـاروه لهذه الأغـراض ليلتـف حولهم السـذج من النـاس فى السـودان وأدهـى من ذلك كلـه أن هؤلاء الحاقدين المفترين الذى هزم فلنتين بيكر فىواقعة التيب الثانية بقوة تبلغربع قوة فلنتين فى أمر الثورة المهـدية فى السـودان من السـودانيين ممن يسميهم جاكسـون فى كتابة (عثمـان دقنـه) (بعض المصـادر المحلية)

لأنه اعتمد عليهم كما اعتمد على المصادر الرسميه وغير الرسـميه التى لم تكن تختلف كثيرا عن تلك الروايات لانها صاحبة الغـرض فى أمر تشويه الثورة المهدية فى السودان . انهم وغيرهم من السودانيين وغير السودانيين اعتبروا ماكتبه جاكسون وغيره من الاستعماريين عن هـذه الثورة وعن رجالها الحق الذى لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه فيما كتبـوه عنها ونسوا وتناسـوا انهم كانوا ضمن المصادر التى اعتمد عليها هؤلاء ، ثم أخذوا يضللون الناس فى السودان وخارج السودان عن طبيعه الثورة المهدية فى الســودان وعن حقيقة لمخلصين من رجالها أمثال الأمير عثمان دقنه وغـيره الذين قالوا عنهم فى جرأة غريبة انهم ضالون مضلون وصدقهم كثير من الناس وأخذوا ينظرون الى هؤلاء الأبطال القوميين على الأقل بمزيج من العواطف غريب كل الغربة . مزيح من الحسرة والاعجاب ، والحسرة لأن هؤلاء المضلين حاولوا أن يقنعـوهم بفسـاد عقيدة أولئـك الأبطـال الذين حاربوا المشركين وأعوانهم والمظاهرين لهم حربا لا هوادة فيها ، والاعجاب لأن أولئك الرجال مهما حاول الأعداء اخفاء بطولاتهم النادرة وجهـادهم فى سبيل الدين والوطن ، كانوا أبطالا جديرين بالفخر بهم وبانتصاراتهم على الأعداء الذين البسهم أولئك المفترون ثوب الأصدقاء ، وظاهروهم ضد اخوانهم فى الوطن والدين . وبانهم استطاعوا أن يحـرروا الوطن من الاسـتعمار الذى ظل يجثم على صـدور ابنائه سـتين عاما اذاقهم خلالها الأمرين بظلمه وقسوته الأمر الذى جعل النـاس فى السـودان يلتفون حول الزعيم محمد أحمد المهدى .

ولقد نال الأمير عثمان دقنه النصيب الأوفر من هـذه الافتراءات خاصة ومن التشويه الذى تعرضت له الثورة المهدية فى السـودان فى نظر الناس فى السودان وفى خارج السودان بشكل عام وذلك أولا. لأن الأمير عثمان دقنه كان قـوى الايمان بالثورة المهدية التى كان

يجاهد فى سبيلها ، حتى قبض عليه . واستمر مخلصا لها حتى توفى . والتى كان كذلك يخلص لها كل الاخـلاص فى حيـاة زعيمها الامام المهدى وفى فترة حكم الخـليفة الذى لم يـكن يستمع للـكثير من نصائحه . وكان يعامله معاملته لغيره ممن كان يحـذرهم من الأمراء والقواد وكان الأمير يتمنى أن تنتصر الثـورة المهـدية على اعـدائها وأعوانهم الذين كانوا يظاهرونهم ضـد اخوانهم فى الدين والوطن . وظل يقود أعوانه من نصر الى آخر حتى لم يبق أمامه فى شرق السودان بعد أن سقطت كل من سنكات وطوكر وكسلا وقفل طريق بربر فى وجه الحكومة المستعمرة سوى سواكن ، التى تحصن فيها الأعداء بعـد أن فشلوا فى الدفاع عن كل من سنكات وطوكر وكسلا . وكما فشلوا أيضا فى مشروع خط سكه حديد سواكن/بربر ولقـد اغضبت هـذه الانتصارات التى حققها الأمير عثمان دقنـه ضد الاسـتعمار فى شرق السودان الى جانب الأعداء المحاربين ، أولئك الذين ظاهروهم ، ثم تولى هؤلاء الذين ظاهروا غير المسلمين فى حربهم ضد المسلمين القول بأن الأمير عثمان واتبـاعه كانوا خارجين عن تعليم الاسـلام وأشـاعوا هذا الأمر بين الناس حتى صدقهم كثير منهم واعتقدوا خطأ بان الثورة المهدية فى السودان وخاصـة فى شرق السـودان موجهة ضد طائفـة من المسلمين حتى أن جاكسون وغيره ممن كتبوا عن الثـورة المهـدية فى السودان أو عن بعض شخصياتها وجدوا فى هذه الافتراءات ما يؤيد زعمهم بأن الثورة المهدية فى السودان لم تكن ثورة دينية ولم يكن الأمير عثمان دقنه قائدها فى شرق السـودان وأكثر الأمراء اخلاصـا لها وجهادا فى سبيلها وايمانا بها سـوى منتقم لنفسه ولعائلته من الحكومة التى صادرت ممتلكاتهم من الرقيق وغيره ثم سـجنته وأخاه عليا ثم نفته من موطنه سواكن .وأضافوا لذلك أن الهدندوة أكثر البجة جهادا مع الأمير عثمان لم يثوروا أيضا الا انهم كانوا حاقدين ومنتقمين من الحـكومة لأن بعض المسـئولين فى تلك الحـكومة لم يوفوهم

أجورهم كاملة عندما نقلوا بإبلهم حملة ولوازمها عبر الصحراء أو كما يقول الأستاذ محمدعوض الذىتاثر بمزاعم غردون باشا وتخرصاته.

ثانيا : عندما جاء غردون باشا للسودان فى مهمته لاخلاء السودان وتنفيذ السياسة الاستعمارية التى مهد لها الساسة البريطانيين الاستعماريين فى ذلك الوقت وبعد أن اجبروا الحكومة المصرية على الانسحاب بحجة أن حكومة جلالة الملكة لا تستطيع الموافقة على زيادة أعباء الخزينة المصرية بما ينفق باسراف فىعمليات حربية لاتفيد مصر طلب غردون الى الحكومة البريطانية أن توافق على ارسال الزبير باشا الى السودان ليعينه على اقامة حكومة مستقرة فى السودان وعلى القضاء على الثورة المهدية بما كان له من نفوذ . ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك الأمر بحجة أن الزبير باشا الذى استعانت به الحكومتان كثيرا فى حروبها خارج السودان تاجر رقيق سابق يخشى منه على سمعة الامبراطورية البريطانية من هذه الناحية اذا قبلت استخدامه فى هذا الأمر بالاضافة الى أن اللورد كرومر خاصة كان يخاف من أنيتعرض غردون باشا لانتقام الزبير باشا لأنهأمر بقتلابنه سليمان وبمصادرة ممتلكاته ولكن غردون لم يقتنع بكل دلك لأنه كان قد قرر الأمر بينه وبين نفسه على الأقل ـ القضاء على المهدى واتباعه ممها كلفه ذلك الأمر فذكر أن محمد أحمد المهدى نفسه والقائم بأمر الثورة آلة مسخرة فى ايدى تجار الرقيق وان قادة رجاله هم بعينهم قادة رجال الزبير من قبل وبالرغم من أن هذا الزعم صادف هوى فى نفوس الكثيرين من اعداء الثورة فى الداخل والخارج الا أنه لم يجد ما يؤيده لأن المهدى زيادة على أنه لم يكن تاجرا للرقيق فى يوم من الأيام برهن للجميع وعلى رأسهم غردون نفسه بأنه لم يكن آلة مسخرة فى يد احد من الناس فضلا عن تجار الرقيق الذين تبعوه وأصبح كثيرا منهم من أخلص أنصاره والمؤتمرين

بأمره وبذلك حار الأعداء فى أمرهم لأن شبهة قوية وكفيلة بالتشويه الذى أرادوا أن يرموا بها الثورة الهدية وخاصة فى زعمهم الذى زعموه وضللوا به الكثير من السودانيين وغير السودانيين عن طبيعة الثورة المهدية وحقيقة رجالها المخلصين وهو القول بأن الثورة لم تكن دينية وان زعماءها وقادتها لم يكونوا يعملون بوحى من الدين الاسلامى . وانما كانوا يعملون بوحى حقدهم وانتقامهم واغراضهم الشخصية كما قال بذلك غردون و ترومر وسلاطين وفوزى وجاكسون وغيرهم ولكن هؤلاء الاعداء رأوا أن يرموا الأمير عثمان دقنه بشبهة تجارة الرقيق والعمل بوحى من الحقد والانتقام وللاغراض الشخصية ولقد لجأوا لهذا الأسلوب بعد أن استعصى عليهم الطعن فى ايمانه واخلاصه للثورة المهدية كما عزوا ثورته لمصادرة الحكومة لممتلكاته وممتلكات أهله ولقد وجدت هذه الشبهة الجو الصالح لأن تكون أكثر قبولا عند الناس عندما اسندوها الى الأمير عثمان دقنه بدلا من اسنادها للامام المهدى كما أراد غرودن بشا . أن الفرية التى يقول بها الأعداء وهى عمل الأمير بتجارة الرقيق أخذ بها بعض السودانيين الحاقدين على الثورة المهدية لسبب من الأسباب ويذيعون هذه الفريه بين الناس فى السودأن حتى أليوم ليقووا فى نفوسهم الاعتقاد بأن الثورة المهدية فى السودان لم تكن ثورة دينية أو يقولوا على الأقل بأن بعض القائمين بامرها كما يقول الأعداء الذين كتبوا عنها من غير المسلمين لم تكن دوافعهم دينية تحررية وهم بذلك يقولون حسب اعتقادهم المبرر المعقول فى نظرهم لعدم اشتراكهم فى تلك الثورة بل ومظاهرة أعدائها عليها .

أن تغيير المصادر التى عملت على النيل من واثارة الشبهات حول

تاريخ السودان فى فترة الثورة المهدية مهم جدا اذ أن ألثورة المهدية تمثل حكم وطنى قام على انقاض حكم أجنبى غاشم ولأنها

حررت الناس فى السـودان من الاسـتعمار الذى كان يستغل خيرات هذا البلد ويسخر موارده كلها لصالحه والذى كانت قسـوته وظلمه واضطهاده للناس فى السودان سببا لأن يبادروا بالانضـمام الى زعيم هذه الدعوة بمجرد أن أعلنها ضد ذلك الحكم الذى تمنوا الخلاص من قسوته وظلمه واضطهاده ولقد نال الأمير عثمان دقنه نصيب الأسد من افتراءات العدو والحاقدين الذين لم تقف عدأوتهم له فى حياته للاسف بل امتدت الى مابعد موته والى هـذا الوقت وذلك لان الأمير عثمان كان ركنا بارزا فى الثورة المهـدية جاهد فى سـبيلها بكل اخـلاص واستحق منا كل عرفان وتقـدير بعـد أن ضرب لنا أروع الأمثلة فى التضحية والتفانى فى حب الوطن والذود عنه ونبذ الماديات والترفع عنها فى سبيل عزة ترابه الذى لم يثنه عنه شىء .

لقد كتب الأمير عثمان اسـمه بحـروف من نور على صفحـات تاريخ المجد والبطولات عبر التاريخ بمـا بذله من دم وعرق وجهـد جهيد ، لقد كانت الثورة فيه قلبا وقالبا ولم يستطع المستعمر أن ينال شيئا منه حتى وهو أعزل فى الأسر .

أن سيرة الأمير عثمان دقنه سفر خالد من المواعظ والعبر ومنار للمجد والخلود نهديه لأبنائنا قدوة حسنة يهتدوا بها فى حياتهم حتى يشبوا على حب أوطانهم التى اريقت الدماء فيها انهارا وسـكبت فيها المهج رخيصة كل ذلك فى سبيل حرية تنال بكل ما هو غال ونفيس .

المراجـــع

المراجع العربية : ـ

تاريخ السودان الحديث والقديم وجغرافيته
نعوم شقير

تاريخ السودان اقليم البحر الأحمر
الأستاذ محمد صالح ضرار

تاريخ السودان الحديث
الأستاذ ضرار صالح ضرار

مختصر تاريخ السودان الحديث
الدكتور مكى شبيكة

السودان فى قـــرن
الدكتور مكى شبيكة

جهاد فى سبيل الله
اعداد عبد الله محمد أحمد حسن

بريطانيا فى السودان للورد كرومر
ترجمة عبد العزيز أحمد عرابى

دفتر عثمان دقنه ـ خطاباته الى المهدى
دار الوثائق المركزية

تاج التفاسير
السيد محمد عثمان المرغنى

محمد أحمد المهدى
محمدين الشنقيطى
يسألونك عن المهدية
السيد الصادق المهدى
كـــررى
ـــ الرائد زلفو
مذاكرات محمد بك موسى ناظر الهدندوه
مخطوطة الأستاذ محمد صالح ضرار
السودان بين يدى غردون وكتشنر
ابراهيم باشا فوزى
ضحايا مصر فى السودان
مخزون
السودان للسودانيين
الأستاذ عبد الرحمن على طه
معالم تاريخ وادى النيل
الشاطر بوصيلى
النداء فى دفع الافتراء
محمد عبد الرحيم

ENGLISH REFRENCES

1) Osman Digna : **H.C. Jackson.**

2) A History of the **Beja Tribes of** the Sudan : A. Paul.

3) The Mahdiya : A. B. **Theobold.**

4) The Mahdist State **in the** Sudan. P.M. Holt.

5) The River Warthe **Reconquest** of the Sudan. W. S. Churchill.

6) History of the **Modern** Sudan P.M. Holt.

7) The Battle of **Tofrek 1887 - Gallowary W.**

8) The Anglo - **Egyptian Sudan** : Sir Harold Mae **Michael.**

9) The Story of **Lord Kitchener** : H.F.B. Wheller.

10) Fire and Sword **in the Sudan** : Rudolf Slatin.

11) The Winning of the **Sudan** : **Crabites** Pievre.

12) The Egyptian **Sudan E.A.W. Budge.**

الفهـرس

	الصفحة
١ ــ الفصل الأول	٩
الأرض والناس	
٢ ــ الفصل الثانى	١٩
أصله ونشأته	
٣ ــ الفصل الثالث	٢٥
الثورة المهدية	
٤ ــ الفصل الرابع	٣٥
الصوفية بالشرق	
٥ ــ الفصل الخامس	٣٩
الشرق قبل الثورة	
٦ ــ الفصل السادس	٤٣
هجرة الأمير الى المهدى	
٧ ــ الفصل السابع	٥١
البيعة الكبرى	
٨ ــ الفصل الثامن	٥٣
الوقائع الأولى	
زحف الأمير الى أوكاك « سنكات »	٥٣
واقعة قباب	٥٦
واقعة ابنت	٥٨
واقعة التيب الأولى	٥٩
واقعة تاماى الأولى	٦١
٩ ــ الفصل التاسع	
التدخل البريطانى السافر	
واقعة التيب الثانية	٦٥
سقوط سنكات	٧٠
سقوط طوكر	٧٢
نتائج انتصارات الأمير	٧٤

واقعة التيب الثالثة	٧٥
واقعة تاماى الثانية	٧٧
١٠ ـ الفصل العاشر	٨١
واقعة توفرك	٨٥
واقعة تاماى الثالثة	٨٦
مطاردة كتشنر	٩٢
واقعة الجميزة	٩٤
١١ ـ الفصل الحادى عشر	٩٥
المهدية فى كسلا	
واقعة الجمام	٩٦
واقعة العشرة	٩٨
واقعة تنكياى	٩٩
واقعة سدنية الأولى والثانية	١٠٠
واقعة قلوسيت	١٠٢
سقوط الخاتمية	١٠٣
تسليم حامية كسلا	١٠٦
واقعة كوفيت	١٠٨
١٢ ـ الفصل الثانى عشر	١١١
درب كات وقيلا أور والمتخلفين	
١٣ ـ الفصل الثالث عشر	١١٩
الغزو البريطانى	
سقوط طوكر	١١٩
حملة النيل	١٢٢
واقعة النخيلة	١٢٢
١٤ ـ الفصل الرابع عشر	١٢٧
أسر الأمير	
١٥ ـ الفصل الخامس عشر	١٢٩
شخصيته	
١٦ ـ الفصل السادس عشر	١٥٥
مكانتـــه	

مطابع مدكور ٣٠ عبد الخالق ثروت